#
والعلماء هم الظالمون
(1)

تنبيه: هذه المقالة لا تعبر سوى عن وجهة نظر كاتبها، وهي بأي حال من الأحوال غير ملزمة إلا له، لأنه يعتقد أن هذا هو الحق، ولو استطاع أحد أن يثبت خطأ الكاتب، فهذا مما سيثر البهجة لديه، وهو (أي الكاتب) لا شك مستعد ليتخلى فوراً عن هذه الآراء، لذا فإننا نهيب بالقارئ الكريم أن يبحث عن فجوات في هذا الطرح ليتم تصحيحه، كما نحثه على أن لا يؤمن بما جاء في هذه المقالة، لأنّ الإيمان بذلك يعني إقامة الحجة عليه، وبالتالي تحمله تبعات مثل هذه المواقف التي من الممكن أن تكلّفه ما (قد) لا يحتمله، لذا فإننا نرى أن لا يكلف القارئ نفسه عناء قراءتها في البدء، وإن هو فعل على جهاز recycle bin أن لا يقتنع بما جاء فيها، ومن ثم إلقائها إلى الحاسوب الذي قرأها منه.

أما بعد:

والعلماء هم الظالمون

نعم، العلماء هم الظالمون، ولا شك أنهم هم من أهم أسباب بلاء هذه الأمة كما كانوا سببه الأول والأخير عند الأمم الأخرى، وربما يستغرب البعض مثل هذا القول، فنرد بالقول بأن مقالتنا هذه تقحم نفسها في هذا الموضوع الذي لا شك سيكون له – إنْ صحّ- تداعياته الخطيرة على حياة الناس العاديين.

ونحن ننوى أن نبيّن كيف يكون العلماء هم الظالمون، وكيف أنهم من أهم أسباب تأخر هذه الأمة وبقائها في ذيل القافلة. وسنحاول تفصيل الأمر باستعراض بعض الأمثلة من حياة الناس، نذكر منها:

1. حرب الخليج
2. العمل في دول الخليج العربي
3. جواز السفر الغربي
4. حكومة سمير لا قمحة ولا شعير

ولكن قبل الخوض في تفاصيل هذه القضايا لا بد من تجلية بعض المسوغات العقائدية لما سنزعم في مقالتنا هذه.

من هم العلماء؟

يحدد لنا النص القرآني -بما لا يدع مجالاً للتأويل- من هم العلماء، فقد وردت هذه المفردة في موقعين من كتاب الله، قال تعالى:

(أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةً أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ الشعراء 197)

وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ فاطر (28)

ونحن نعلم أنّ مفردة "العلماء" مشتقة من "العلم"، فالعلماء هم من تحصل لهم العلم، وقد أثبت القرآن الكريم أنّ العلم ربما يتحصل للكائنات الأخرى غير الإنسان، قال تعالى:

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ ۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ النور (41)

فكل من وصله العلم بالشيء أصبح عالماً فيه، ولكن درجة العلم متفاوتة بين عالم وآخر. ونحن نظن أنّ العلم يتحصل بالنقل[1]، وقد بدأت رحلة الإنسان مع العلم منذ "اليوم الأول" لخلقه، فالله سبحانه قد علّم آدم الأسماء كلها، وبذلك انتقل ذلك العلم من المصدر الإلهي إلى آدم، فأصبح آدم عالماً متميزاً

.على بقية مخلوقات الله بتلك الهبة الربانية
:وهذا القرآن العظيم هو علم نُقل إلى محمد من المصدر الإلهي، قال تعالى

وَلَنْ تَرْضَىٰ عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ البقرة (120)

وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ ۖ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ ۚ وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًاالنساء (113)

فالعلم إذاً قد جاء إلى النبي محمد من مصدر رباني، وهو ليس علم محمد من نفسه. وقد قام صلى الله عليه وسلم قام بدوره بنقل ذلك العلم إلى الناس، :فتحصل لهم العلم به

كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ البقرة (151)

لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ آل عمران (164)

بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ العنكبوت (49)

هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ الجمعة (2)

:ولا شك أنّ المصدر الصحيح للعلم هو المصدر الإلهي

فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا ۖ فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا

(تَعْلَمُونَ البقرة (239

(عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ القلم (5

والعلم لا شك درجات:
يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ ۖ وَإِذَا قِيلَ انْشُزُوا فَانْشُزُوا يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ المجادلة (11

تنتهي جميعها عند العلم الإلهي:
فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ ۚ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ ۖ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ ۗ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ يوسف (76

فالعلم كله عند الله:

(قُلْ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ الملك (26

كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ ۖ وَعَسَىٰ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ ۖ وَعَسَىٰ أَنْ تُحِبُّوا
شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ ۗ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ البقرة (216

وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُمْ بِالْمَعْرُوفِ ۗ ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ
الْآخِرِ ۗ ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُ ۗ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ البقرة (232

هَا أَنْتُمْ هَٰؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ ۚ
وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ آل عمران (66

(فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ ۚ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ النحل (74

إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ۚ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ النور (19)

لذا، فمهما بلغ الإنسان درجة متقدمة من العلم فلا يمكن أن يشكّل علمه ذاك إلاّ نزراً يسيراً من علم الله اللامتناهي:

وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ ۖ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا الإسراء (85)

وهناك علم اختص الله به نفسه فلا يعلمه غيره:

قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ ۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ النمل (65)

فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ السجدة (17)

يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ ۚ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا
الأحزاب (63)

سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ يس (36)

وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً ۙ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا ۙ وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ ۙ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ۚ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ۚ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ المدثر (31)

فحتى الجن لا تستطيع الحصول على مثل ذلك العلم:

فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ ۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ سبأ (14

وهناك أشياء نفى الله عن نفسه أن يعلّمها لأنبيائه:

وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ يس (69

وهناك أشياء أجّل الله العلم بها حتى حين:

وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ ص (88
سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَنِ الْكَذَّابُ الْأَشِرُ القمر (26
كَلَّا سَيَعْلَمُونَ (4) ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ (5) النبأ
كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ (3) ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ (4) التكاثر

والله سبحانه لا يساوي بين من يعلم ومن لا يعلم:
أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ[2] الرعد (19

أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ الزمر (9)

لأنّ من آتاه الله العلم هو الأقرب إلى الهداية وإلى الحق:

ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشَاقُّونَ فِيهِمْ ۚ قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ النحل (27

ولكن ذلك العلم لا يؤتيه الله إلا لمن شاء له أن يكون عالماً به:
اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا

فِي الْأَرْضِ ۗ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ ۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ۖ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ
(البقرة (255
:والله سبحانه يثبت في كتابه الكريم أن الغالبية لا تعلم، قال تعالى
أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۗ أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (يونس (55
مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ ۚ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (يوسف (40
وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا ۚ وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (يوسف (68
وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ ۙ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ ۚ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَالنحل (38
ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا ۖ هَلْ يَسْتَوُونَ ۚ الْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ النحل (75
وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ ۙ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ
(النحل (101
أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً ۖ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ ۖ هَٰذَا ذِكْرُ مَنْ مَعِيَ وَذِكْرُ مَنْ قَبْلِي ۗ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ ۖ فَهُمْ مُعْرِضُونَ الأنبياء (24
أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَإِلَٰهٌ مَعَ اللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ النمل (61
فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ
(القصص (13
وَقَالُوا إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا ۚ أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ القصص (57)

وَعْدَ اللَّهِ ۖ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (6) يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ (7) الروم
فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ الروم (30
وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ الْبَعْثِ ۖ فَهَٰذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَٰكِنَّكُمْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ الروم (56
وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ۚ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ
لقمان (25
وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ سبأ (28)
قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ سبأ (36)
ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ الْحَمْدُ لِلَّهِ
بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الزمر (29 ۚ
فَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ ۚ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ
وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الزمر (49
لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ غافر (57
مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الدخان (39
قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ
الجاثية (26
وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الطور (47
يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ ۚ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ
وَلَٰكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ المنافقون (8

وبالمقابل فإن الكثرة (التي لا تعلم) تتبع الظن، فالذي لا يعلم غالباً ما يسلك

:طريقاً غير طريق العلم، وهي طريق الظن وهوى النفس

وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُمْ بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ
(هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ الجاثية (24
وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ ۖ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا
(النجم (28
وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ۚ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا
(يَخْرُصُونَ الأنعام (116
أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ ۗ وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ
(اللَّهِ شُرَكَاءَ ۚ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ يونس (66
فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ
(بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ القصص (50
إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ ۚ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَىٰ النجم (
(23

:فمن لديه العلم لابد أن يقدّم الدليل على علمه

قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ ۖ ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَٰذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ
(صَادِقِينَ الأحقاف (4

ولا شك أن أنبياء الله قد آتاهم الله علماً، فكانت تتلخص مهمتهم بنقل ذلك العلم إلى الناس، فنبي الله إبراهيم يدعو أباه إلى الإيمان لأنه قد تحصّل له :علماً لم يتحصّل لأبيه، قال تعالى على لسان نبيه إبراهيم
يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا مريم (
(43

افتراء من عند أنفسنا: ولكن ذلك لا يعني أن العلم مقتصر على الأنبياء، بل

على العكس، فقد يتحصل للناس العاديين من العلم ما لم يتحصل للأنبياء أنفسهم، كلام خطير، أليس كذلك؟

الدليل

لو تدبرنا العبرة المستقاة من قصة موسى مع ذاك الرجل الصالح لوجدنا فيها توجيهاً إلهياً ربما غفلنا عنه لقرون، فلقد جهد كليم الله موسى في أن يتبع ذلك العبد الصالح ليتحصل له العلم:

فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا (65) قَالَ لَهُ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا (66) الكهف

ولكن جاء رد الرجل واضحاً:

قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا (67) وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا (68)الكهف

نعم، لقد تحصّل لذاك العبد الصالح من العلم ما لم يتحصل لنبي الله وكليمه موسى عليه السلام، وعلى الرغم من دعوة علمائنا الأجلاء لنا بقراءة سورة الكهف (ولو مرة واحدة في الأسبوع) إلاّ أنّه - للأسف الشديد- لم يجد هذا التوجيه الرباني طريقه إلى التطبيق العملي بسبب ما أضفى العلماء على الأنبياء من القدسية، فهم قد جعلوا الأنبياء أعلم خلق الله، وجاءت طائفة أخرى لتضفي تلك القدسية على بعض الأولياء والصالحين، كالصحابة والتابعين وأهل البيت عليهم جميعاً أفضل الصلاة وأتم التسليم، وتتابع هذا المسلسل حتى ذهبت بعض الطوائف والفرق لتضفي مثل تلك القدسية على شيوخ الطريقة وهكذا، ولو زعم رشيد الجراح في يوم ما أنه رأى في منامه (وليس في الحقيقة) أنه ربما يكون أكثر علماً من ابن عمر أو أبي حنيفة أو حتى أحد تابعي التابعين لأقاموا الدنيا فوق رأسه ولما أقعدوها (وقد فعلوا)، ولكننا نقول لعلمائنا الأجلاء: ما الفائدة التي ربما تستنبطوها من قصة ذهاب موسى (نبي الله وكليمه وهو واحد من أولي العزم من الرسل) في رحلة طويلة ليطلب العلم من عبد من عباد الله لا يذكر القرآن الكريم اسمه بصريح اللفظ؟ ثم، ألم تستفيدوا من أدب نبي الله مع ذلك الرجل؟ فهل كابر موسى وصرخ بالرجل بأنه نبي الله وكليمه؟ ثم لننظر إلى رد ذلك الرجل، ألم يؤكد لنبي الله أنه لا يستطيع مجاراته في العلم، وأنه لن يصبر على علم لم يحط به خبرا؟

لقد نخر علماؤنا الأجلاء في أذهاننا أن عصر العلم قد ولى وانتهى، فلا يمكن لنا أن نصل إلى ما وصل إليه من سبقنا في الزمن، وهنا سأطرح سؤالاً بسيطاً: إذا كان الأمر كذلك: فما فائدة وجودنا أصلاً؟ ألم تنتهي رحلة العلم مع من رحل؟ ماذا نعمل نحن على وجه هذه البسيطة؟ نأكل، نتزاوج، ننام، نردد ما قالوا، وكفى.

رأينا: كلا وألف ألف كلا، نحن نعلم وربما نعلم أكثر مما علموا هم، وما نحن بحاجة له هو أن نعطى الفرصة (وربما الثقة) لأنفسنا بأننا قد نعلم. فالله سبحانه أمرنا أن نبقى على الدوام مطالبين زيادة ذلك العلم:

فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ ۗ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ ۖ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا طه (114)

(دعاء: رب زدني علما، إنك أنت العليم الحكيم)

لأنه لا يمكن أن نتخيل ما يمكن أن يتحصل لنا من علم إن نحن اجتهدنا في طلبه، ولنمعن التفكير بما كان يستطيع القيام به من تحصل له شيء من ذلك العلم:

قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ۚ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَٰذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ النمل (40)

وكل ما يجب علينا أن نلتزم به في رحلة العلم التي ننشدها هو أن لا نتجرأ بأن نقول (كما يفعل بعض الناس) على الله بغير علم:

قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَانَهُ ۖ هُوَ الْغَنِيُّ ۖ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۚ إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَٰذَا ۚ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ يونس (68)

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَرِيدٍ الحج (3)

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ الحج (8)

وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَا لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ ۗ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ

الحج (71)

إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ

(النور 15)
بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ ۖ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ
(الروم 29)
وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا ۚ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ لقمان (6)
أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً ۗ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ لقمان (20)
وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ ۗ مَا لَهُمْ بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ الزخرف (20)
فقد نسب بعضهم العلم لأنفسهم:
قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي ۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ القصص (78)
فَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ ۚ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الزمر (49)
فاستحقوا بذلك الختم على قلوبهم:
كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ الروم (59)
والله سبحانه كان قد نهى نبيه نوح أن يسأله عن ما "ليس لنوح علم به" لأن ذلك فعل لا يقوم به إلا من أراد أن يكون من الجاهلين، قال تعالى:
قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ ۖ فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ۖ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ هود (46)
وقد نهانا الله سبحانه عن إتباع سبيل وأهواء الذين لا يعلمون:
قَالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ يونس (89)
ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ الجاثية (18)
فنحن إذاً مطالبين بإتباع سبيل الذين يعلمون، والابتعاد عن طريق الذين لا يعلمون، أليس كذلك؟
*** *** ***

وهنا نصل إلى ذروة ما نقصد في بحثنا هذا، وتتمثل المعضلة التي نود طرحها في تطابق عجيب يمكن تلخيصه على النحو التالي: لقد وجّهنا الله إلى إتباع سبيل الذين يعلمون ونهانا أن نتبع سبيل الذين لا يعلمون، وفي الوقت ذاته أثبت ربنا في كتابه الكريم أنّ العلم الإلهي هو سبب الاختلاف بين الناس:

إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ۗ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ آل (عمران 19)

وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ الشورى (14)

وَآتَيْنَاهُمْ بَيِّنَاتٍ مِنَ الْأَمْرِ ۖ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ الجاثية (17)

وتتأكد الفكرة نفسها حتى عند الأمة الواحدة، فلقد كان بنو إسرائيل على وفاق حتى جاءهم العلم الإلهي:

وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْعِلْمُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ يونس (93)

إذاً نحن نفهم من هذه الآيات الكريمة أن العلم هو سبب الاختلاف، لذا نحن نثير تساؤلاً (نظن أنه) مهماً، ألا وهو: كيف يكون العلم سبباً للاختلاف؟ أليس العلم طريقاً للمعرفة ومن ثم الهداية كما أسلفنا سابقاً؟ ألا يجدر بالعلم أن يؤدي بنا إلى التوافق بدلاً من الاختلاف؟

رأينا: كلا، لقد بيّن الله سبحانه وتعالى في كتابه الكريم أن سبب الاختلاف هو العلم، فكيف يكون ذلك؟

النتيجة: العلم هو سبب الهداية وهو – في الوقت ذاته- سبب الاختلاف، وبالتالي فالعلماء إما أن يكونوا سبباً في الهداية أو سبباً في الاختلاف. وهذا بالضبط ما سنحاول تجليته من الأمثلة التي سنقدمها.

إنّ أول ما يمكن أن نسلّط عليه الضوء في هذا المقام هو ما تكرر في الآيات الكثيرة في كتاب الله حول التأكيد الرباني أنّ الإنسان قد يجحد بآيات ربه على الرغم من علمه بها، كما حدث لآدم يوم أن عصى ربه، فالله قد أودع في آدم علماً، ولكن ذلك العلم لم يثن آدم عن الوقوع في المعصية، وتكرر

مثل هذا الأمر مع نبي الله موسى عليه السلام، فقد آتاه الله حكماً وعلماً يوم أن بلغ أشده، ولكن ذلك لم يثنه عن قتل الرجل الذي هو من عدوه، ولنتدبر النص بأكمله كما يرد في سورة القصص:

وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (14) وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَذَا مِن شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِن شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ (15) قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (16) القصص 14-16

وهو بالضبط ما كان من أمر نبي الله ورسوله يوسف، فقد همّ بالمرأة كما همّت هي به من قبل (لولا أن رأى برهان ربه)، وقد حصل ذلك بعد أن كان الله قد آتاه حكماً وعلماً:

وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (22) وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ ۖ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ ۖ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (23) وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَن رَّأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ ۚ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ (24) يوسف 22-24

إنّ فحوى الكلام هو أنّ حصول العلم لا يعني عدم الوقوع في المعصية، وهذا المعنى تكرر في كتاب الله في أكثر من موضع، تتجلى أوضح صوره بالشرك:

الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ البقرة (22

وفي إيقاع الأذى برسل الله وأنبياءه:

وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ ۖ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ الصف (5

وتبدأ الصورة تقل وضوحاً في تحريف كلام الله:

أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ البقرة (75

وفي أكل أموال الناس:

وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ البقرة (188

وفي الكذب:

وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنْطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ آل عمران (75)

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ المجادلة (14)

وفي خيانة الأمانة

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (الأنفال (27

وتبدأ المشكلة الحقيقية في صورتين رئيسيتين وهما:

1. كتمان الحق و

2. إلباس الباطل ثوب الحق،

وهذا المعنى تكرر عدة مرات في كتاب الله

وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ البقرة (42)

الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ البقرة (146)

يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ آل عمران (71)

فنحن نظن أنّ البلاء يعم على الأمة، وتتكاثر الشدائد والمحن، وتشتد الصعاب يوم أن يكتم "الذين يعلمون" الحق، لا بل تتفتت الأمة بأكملها وتنهار وتفقد هويتها وتتفرق إلى فرق وطوائف عندما تقوم فئة من العلماء بالفعل المشين ألا وهو إلباس الحق بالباطل (أو إلباس الباطلَ ثوبَ الحق)، فهناك فئة من العلماء لا تقف عند كتمانهم الحق، وإنما تقوم بما هو أدهى وأمرّ: تزيين الباطل بقشور من الحق، فيلبسون الباطل ثوب الحق، فيضلّوا الناس عن علم، لأنّ الناس العاديين مجبولين بطبعهم على علم بالقشور، قال تعالى:

وَعْدَ اللَّهِ ۖ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (6) يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ (7) الروم 6-7

فإذا ما قامت فئة من العلماء بتزين الباطل بظاهر من الحق حسبه الغالبية الساحقة من الأمة أنه الحق بعينه (ربما كما أفعل أنا الآن)، فوقعوا فريسة سهلة، تستطيع تلك الفئة من العلماء أن يسيّروهم كما يريدون، وفي المقابل

قامت فئة أخرى من العلماء برفض الرأي الأول متسلحين بالدليل ولديهم المسوغات والمبررات على صدق دعواهم (كما يظنوها هم)، وعندها يدبّ الخلاف بين علماء الأمة فتضيع الحقيقة في صراع فكري لا يرضي جميع الأطراف على حد سواء، فيذهب كل طرف في طريق قلما تلتقي مع طريق الفريق الآخر، ويبدأ كل طرف منهم بحشد التأييد لرأيه وموقفه، فينبثق عن هذا الطرف أهل.....، وعن الطرف الآخر أهل..... . ويصعب على الإنسان العادي (من مثلي) أن يميّز إلى أي أهل يحسن به أن ينتمي، وبسبب صعوبة التمييز يؤثر عندها أن يرث فرقته وأهله كما ورث دينه أصلاً، فإن هو ولد من عائلة تنتمي إلى أهل ....، أصبح هو من نفس العائلة والفرقة والطائفة، وغالباً ما يقوم بالدفاع عن طائفته حتى لو لم يكن على علم بمفردات تلك الطائفة. وهذا ما نفهمه من قوله تعالى:

كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ ۚ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ ۗ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ البقرة (213)

إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ۗ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ آل عمران (19)

وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ الشورى (14)

وَآتَيْنَاهُمْ بَيِّنَاتٍ مِنَ الْأَمْرِ ۖ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ الجاثية (17)

فهذه الآيات الكريمات تشير جميعها إلى أنه عندما جاءهم العلم (أي العلماء) اختلفوا (ومن ثم تفرقوا) ليس لأنّ العلم الذي جاء يمكن أن يفسّر أو أن يُحمل على أكثر من وجه، وإنما كان سبب الاختلاف هو البغي بينهم، فكيف يكون ذلك؟

لقد نهى الله في سياق الموضوع نفسه عن إحداث الفرقة بين الناس، قال تعالى:

شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ

إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ ۖ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى
الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ (
13) وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ
رَبِّكَ إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي
شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ (14) فَلِذَٰلِكَ فَادْعُ ۖ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ ۖ وَقُلْ
آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ ۖ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ۖ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ ۖ لَنَا أَعْمَالُنَا
وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ ۖ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ۖ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا ۖ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ (15)
فلقد نهانا الله أن نتفرق في الدين "أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ"، ولكنه
أثبت في الوقت ذاته أن تلك الفُرقة لم تحصل إلا بعد أن جاءنا العلم "وَمَا
تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ"، ولم يكن ذلك إلا لشيء واحد ألا وهو: البغي
."""وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ
فما هو البغي إذاً؟ إننا نفهم أن البغي في سياقه القرآني يعني انتصار طائفة
:على أخرى، قال تعالى
(وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ الشورى (39
ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنْصُرَنَّهُ اللَّهُ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ
(غَفُورٌ الحج (60
إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ
لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ
(القصص (76
إِذْ دَخَلُوا عَلَىٰ دَاوُودَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ۖ قَالُوا لَا تَخَفْ ۖ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ
(بَعْضٍ فَاحْكُمْ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَىٰ سَوَاءِ الصِّرَاطِ ص (22
قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِ ۖ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ
عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ ۗ وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا
فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ
(ص (24
إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ۚ أُولَٰئِكَ
(لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (42
وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى
الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ ۚ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا
(بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا ۖ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ الحجرات (9
:فَالله سبحانه قد حرّم البغي بغير الحق

قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (الأعراف 33)

فنهانا عنه:

إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ النحل (90)

فالذي يبغي على الآخرين هو من يرفض الحق الذي جاء من عندهم ليس لأنه يرى أن قولهم خاطئ وإنما كرهاً بالمصدر الذي جاء من عنده:

بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَنْ يُنَزِّلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۖ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ ۚ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ (البقرة 90)

افتراء من عند أنفسنا: إننا نعتقد أنّ بعض علماء الفرق الإسلامية ترفض الرأي الآخر ليس لعلمهم بخطأ ذلك الرأي (ووجود الدليل على ذلك، وتوافر القناعة لديهم) وإنما كرهاً بتلك الطائفة التي تتبنى ذلك الرأي، فلقد رفضت ثلة من بني إسرائيل –كما تشير الآية السابقة- الحق الذي جاء به محمد (وكثير من الأنبياء السابقين) ليس ليقينهم أن هؤلاء مخطئون، وإنما "بَغْيًا أَنْ يُنَزِّلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ". لقد عطّل كرهم لغيرهم بصيرة قلوبهم، وهذا واضح تماماً في السياق الأوسع الذي وردت فيه الآية الكريمة السابقة:

وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ ۚ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ (89) بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَنْ يُنَزِّلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۖ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ ۚ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ (90)

لذا فلقد رفض فرعون رسالة موسى ليس لقناعته بعدم صدق الرسالة وإنما كرهاً ببني إسرائيل:

وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا ۖ حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ (90)

ولو دققنا النظر في الآية الكريمة لوجدنا أن البغي عادة ما يكون على من حولك وخصوصاً بين المتجانسين:

إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (90)

فالله سبحانه يأمر بثلاث أشياء هي (1) العدل (2) الإحسان (3) إيتاء ذي القربى وينهى عن ثلاثة أشياء هي (1) الفحشاء (2) المنكر (3) البغي، أليس كذلك؟ ولو دققنا النظر في التقابل الذي تفرضه الآية نفسها لوجدنا أن النقيض من العدل هو الفحشاء وأن النقيض من الإحسان هو المنكر وأن النقيض من إيتاء ذي القربى هو البغي.

المفردة (المطلوب)

المفردة المقابلة (المنهي عنه)

العدل

الفحشاء

الإحسان

المنكر

إيتاء ذي القربى

البغي

فها هو قارون من قوم موسى فيبغي عليهم:

إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ (القصص 76)

وها هم الأخوة يبغي بعضهم على بعض:

إِذْ دَخَلُوا عَلَىٰ دَاوُودَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ۖ قَالُوا لَا تَخَفْ ۖ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَاحْكُمْ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَىٰ سَوَاءِ الصِّرَاطِ ص (22)

قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِ ۖ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ ۗ وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ

(ص 24)

فالناس هم ذو قربى لبعضهم البعض، ولكن عندما يختاروا أن يكرهوا بعضهم البعض، ويرفضوا آراء بعضهم ليس لصحة الرأي أو لخطأه وإنما كرهاً بصاحب الرأي يصبح ذلك بغياً بينهم، فتعتدي طائفة على أخرى، مصداقاً لقوله تعالى:

وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى

الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ ۚ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا ۖ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ الحجرات (9)

فالعلاقة بين الناس يجب أن تخلو من البغي وتكون متوازنة كذاك التوازن الذي تصوره الآية الكريمة التالية:

مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ (19) بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ (20) الرحمن 19-20

فالبحران بينهما برزخ يمنع أحدهما أن يبغي على الآخر، فحتى لو كان أحدهما بحجم المحيط والآخر بحجم البحر الصغير فلا يحق لأحدهما أن يبغي على الآخر، لأن ذلك سيترك الكون كله في فوضى عارمة. وأظن أن هذا ما يجب أن يبنى عليه علاقة الأغلبية بالأقليات الموجودة في كل مجتمعات الأرض.

*** *** ***

ونقف هنا للحظة للتمييز بين من يقع في الخطأ وهو غير عالم أنه مخطئ (كحالتي)، ومن يقع في الخطأ وهو عالم به (كحالتي أيضاً)، أي يقع في الخطأ على علم، فهؤلاء هم من أضلهم الله على علم، وهنا تكمن المشكلة، فنحن إذاً مدعوين للتمييز بين نوعين من العلماء الذين قد يقعون في الخطأ، فمن العلماء من يقع في الخطأ على غير علم به (ربما لخطأ في القياس أو الاستنباط، الخ)، ولكن بعضهم قد يقع في الخطأ وهو عالم به، والقرآن الكريم يسمي هذه الفئة من الناس بالظالمين:

وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءهُم مِّن بَعْدِ مَا جَاءكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذاً لَّمِنَ الظَّالِمِينَ" ..." البقرة 145

فمن جاءه العلم واتبع غير سبيل الحق فهو – دون أدنى شك- من الظالمين، فالظلم كما يرد في القرآن الكريم يعني في ظننا "ارتكاب المعصية بالرغم من العلم فيها"، فلا يسمى من يقع في المعصية ظالماً إلا إذا كان قد امتلك العلم فيها من قبل، فها هو آدم يحذره ربه من أن يكون من الظالمين بعد أن أودعه الله العلم بما لا يجب عليه فعله، وهو الأكل من الشجرة، فقول الله يشير صراحة إلى أنّ آدم سيصبح من الظالمين إنْ هو أكل من الشجرة، قال تعالى:

وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ البقرة (35)

وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ الأعراف (19)

وكما وقع آدم في المعصية بالرغم من أنّ الله قد أودع فيه العلم من ذي قبل ونبّهه إلى خطر المعصية التي سيقع فيها، أوقع موسى نفسه في الظلم لأنّ الله كان قد أودع فيه العلم قبل الوقوع في المعصية، ولننظر إلى كيفية اعتراف نبي الله موسى بذنبه:

وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (14) وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَذَا مِن شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِن شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ (15) قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (16) القصص 14-16

وهكذا كان خطاب ذي النون من قبل:

وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ الأنبياء (87)

فالمطلوب من الإنسان ليس "عدم الوقوع في الظلم" وإنما عدم الإقرار به أو عدم الرجوع عنه بالتوبة ليشمله الله بالغفران. فها هم الأنبياء أنفسهم يقعون في الظلم (أي الذنب بعد العلم)، ولكنهم لا يصرّون عليه، بل يبادرون بالاعتراف بظلمهم، فيتوجهوا إلى الله بالتوبة، فيغفر الله لهم لأنه "هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ". فمن أهم سمات المؤمنين أنهم لا يصرّوا على ذنب عملوه إن تبيّن لهم خطأهم:

وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ آل عمران (135)

دعاء: ربنا إنا ظلمنا أنفسنا فاغفر لنا إنك أنت الغفور الرحيم

*** *** ***

وبهذا نصل إلى استنتاجات مهمة تتمثل بما يلي:

1. الإقرار بأن العلماء قد يقعون في الخطأ عن غير علم
2. الإقرار بأن العلماء قد يرتكبون الظلم (اقتراف الخطأ) عن علم
3. حاجة العالم إلى الرجوع عن الخطأ والتوبة والبراءة منه إن علم أنه مخطئ

وهنا قد يبادرنا البعض بالتساؤل التالي: كيف يقع العالم في خطأ وهو عالم به؟ فنرد بالقول أن ذاك وارد جداً، وما يهمنا هنا هو الخوض في صورتين

:اثنتين ذكرناهما سابقاً، نستطيع استنباطهما من قوله تعالى
(ولا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ البقرة (42
(كتمان الحق (وعدم البوح به .1
إلباس الحق بالباطل .2
ولا شك – لدينا- أن كلا الصورتين على درجة من القبح حتى استحقا النهي (والذم) الصريح من رب العباد في كتابه الكريم. ونحن نظن أن النوع الأول ولا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ أشد خطراً على الأمة من النوع الثاني وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ. فالأسلوب القرآني في النهي والزجر عادة ما يبدأ بالأشد خطورة، قال تعالى:
قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ۖ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ۖ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ ۖ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ۖ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (151
.فالشرك لا شك أشد خطورة من باقي الذنوب
المهم في الموضوع هو الاستنباط الذي خرجنا به وهو وجود نوعان من العلماء
فهناك نوع من العلماء يرى الحق واضحاً بيّنا، ولكنّه يؤثر السكوت وعدم البوح به (ويكأن الأمر لا يعنيه)، فهؤلاء العلماء –حسب ظننا- هم السبب المباشر في خنوع الأمة وسكوتها، فنحن نظن أن الأمة تتوقف عن التقدم إلى الأمام متى كتم علماؤها الحق، وآثروا أن لا يرتفع صوتهم به.
وهناك النوع الآخر من العلماء وهم الذين يرون الحق واضحاً بيّناً ولكنهم يستخدموه كسوة للباطل، فيروجوا للباطل بثوب الحق، ولعلي أجزم أن هذا النوع هو أشد خطراً من النوع الأول، بالرغم أن كليهما مذموم بقول رب العالمين، لأن هذا النوع من العلماء هم السبب المباشر ليس فقط لركود الأمة وإنما السبب في تفتت الأمة إلى طوائف وملل متناحرة ومتصارعة، يكون هدف كل منهم إثبات أنه هو (وليس خصمه) على حق، فينقلب الموقف من بحث عن الحقيقة أينما كانت وحيثما حلت، إلى بحث عن أدلة على صدق موقفه، وعندما تتعارض بعض الأدلة والشواهد مع موقفه يقوم بتحريفها ولو بالتأويلات المجازية حتى يخضعها لموقفه، فبدل أن يخضع رأيه للنص، يلوي عنق النص ليوافق رأيه، وهنا تبدأ الفرقة بين علماء الأمة.

وربما لا نحتاج إلى كثير عناء للتمثيل على النوع الأول من العلماء وهم من يكتم الحق، فأصوات العلماء التي لا ترتفع بقول الحق لأي سبب كان هي دليل ملموس في كل مكان وزمان. فكم من علمائنا يعرف الحق ولكنه لا يرفع صوته به، فلو كنت معه في جلسة خاصة لسمعت منه كلاماً غير الذي يقوله على الملأ، فهم لا يبوحون بما يعلمون.

ولكن تكمن المشكلة الأكبر في النوع الأخر الذي يصعب تميزه، وهم الذين يلبسون الحق بالباطل، ولكن من هم هؤلاء؟

إننا نعتقد أنهم الذين يحاولون إيجاد التبريرات للباطل، وهذا هو لب النقاش الذي سنستطرد به في مقالتنا هذه.

إننا نزعم أن إيجاد المبررات لشيء في أصله خطأ هو الظلم بعينه مهما كانت درجة الإقناع، ومهما كانت تلك المبررات التي يسوقها العالم للتدليل على وجاهة رأيه، فلقد ساد في الفكر الديني مقولة فحواها الأخذ بالظروف السائدة، فتم إخضاع الفتاوى الدينية لظروف الحال (المكان والزمان)، وهذا بالضبط ما لا نتقبله على الإطلاق، ونعتقد أنه سبب الوقوع في الظلم، فعندما يسوق العالم المبررات لدعم رأي هو في الأساس خلاف الأولى متعللاً بالظروف والأحوال فهذا لا شك سيؤدي بالتالي إلى الوقوع في الظلم.

فنحن نؤمن أن الفتوى الدينية يجب أن تكون مستقلة عن ظرف المكان والزمان، ولا يجب أن تتغير بتغيره، لأن ذلك سيفتح المجال لجميع التأويلات والتفسيرات التي لا شك ستجد المبرر والحجة لذلك، وبالتالي سيصبح الأمر الديني متقلباً ومتغيراً لا يحتكم إلى النص الديني، وإنما إلى تأويلات متباينة مدفوعة بعوامل خارجية لا قيد لها ولا ضابط، ولو كان هذا الأمر مقبولاً لما كان هناك حاجة أصلاً إلى النص الديني. وتستطيع التأكد عملياً من وجاهة ما نزعم على النحو التالي: قم بعرض فتوى معينة على فئة من العلماء في بلد ما وتحت نظام سياسي معين، وقم بعرض تلك الفتوى على علماء غير محكومين بتلك الظروف ولا بسلطة ذلك النظام السياسي عليهم، فإن اختلفت الفتوى تستطيع عندها أن تدرك أنّ ظلماً قد وقع، ولكن إذا لم تتغير الفتوى بتغير الظرف فذلك يعني عدم وقوع الظلم.

إننا نؤمن أنه مهما كان المسوغ ومهما كان الظرف السائد فلا يجب أن يكون ذلك سبباً في إتباع ما هو خلاف الأولى، فما يحكم الفتوى الدينية هو النص الديني فقط، أما ظروف الزمان والمكان فلا يجب أن تقدّم بأي شكل من الأشكال على النص الديني، لأن ذلك سيكون مدفوعاً بقوة الحجة،

فصاحب اللحن في الحجة عنده القدرة على قلب الحقائق، وجميعنا يعرف أن هناك جماعة من الناس لديهم القدرة على قلب الأبيض إلى الأسود، والأسود إلى الأبيض، وهنا سيقع الناس في حيرة، تارة يميلون مع هذا الرأي وتارة مع الرأي الآخر، تبعاً لمصالحهم وظروفهم، فتنقلب حال الأمة إلى مؤيد ومعارض، ونحن كأمة ليس لنا إلا سبيلاً واحداً مصداقاً لقوله تعالى:
(قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي ۖ وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ يوسف (108
فنحن نربو بالأمة أن يكون تبرير الخطأ هو منهجها، فأنا شخصياً لا أجد أجدر (ولا أقوى) من حجة إبليس يوم أن رفض السجود لآدم:
(قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ۖ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ الأعراف (12
(قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ۖ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ (75) قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ ۖ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ (76) ص 76-75
أليست تلك حجة مقنعة؟ لِمَ يسجد إبليسُ لآدم؟ أليست الأسبقية في الخلق لإبليس؟ أليست الخيرية في مادة الخلق لإبليس؟ لِمَ إذاً يطلب منه السجود لآدم؟ ألا ترى -عزيزي القارئ- أن في حجة إبليس منطق مقنع؟ إنني لا أجد تبريرات علمائنا الأجلاء للخطأ بأعظم ولا بأجدر من حجة إبليس يوم أن رفض السجود لآدم، ولكن يبرز السؤال الأكبر: هل تُبرّر حجة إبليس رفضه الأمر الإلهي بالسجود لآدم؟
إننا ندعو علمائنا الأجلاء أن لا يكون ذلك هو ديدنهم: تبرير ما لا يبرر، فالخطأ خطأ، والصواب صواب، مهما قدمت التبريرات ومهما سيقت الأعذار والمسوغات، وحتى لا يبقى كلامنا هذا في إطاره النظري سنقدم الأمثلة التي ذكرناها في المقدمة لبيان حجتنا هذه (التي ربما تكون من نفس الباب: (تبرير الخطأ

حرب الخليج

لقد شقت تلك الحادثة التاريخية صف الأمة شقاً عظيماً، واختلاف الناس في تحليلها ومن ثم اتخاذ الموقف المبدئي منها، وشق ذلك الاختلاف طريقه إلى فتاوى علماء الأمة بين من يعارض ومن يؤيد، فأصبح العالم الإسلامي صفين متباينين في الرأي والموقف. وما يهمنا في هذا الطرح هو الإطار العام لموقف السادة العلماء، وتتلخص المعضلة بأكملها في جملة واحدة: هل

فعلاً كان كلا الرأيين صائباً؟ لا أظن ذلك. وأنا أعتقد أن أحدهما هو الرأي الصائب أما الآخر فهو رأي باطل ألبسه أصحابه ثوب الحق. فأي الرأيين هو الرأي الصائب؟ إننا نظن أن الإجابة على هذا التساؤل قد يتجلى إن نحن طرحنا سؤالاً آخر، ألا وهو: ماذا كان موقف السادة العلماء من ذلك الأمر قبل حدوثه؟ وبكلمات أدق، كيف كان رأي السادة العلماء قبل تلك الحادثة؟ وبكلماتنا نحن، يكون السؤال على النحو التالي: ما هو موقف السادة العلماء من الأمر دون إخضاعه لظروف الزمان والمكان؟

لقد كنت في تلك الفترة لازلت شاباً يافعاً (أحلى شاب في العالم) باحثاً عن إشباع شهواتي، ولم أكن بأي حال من الأحوال أعلم أن لي موقفاً مبدئياً ثابتاً من أي شيء، وكنت أتغير بين ليلة وضحاها، فأنا في الصباح غير أنا في المساء، في الصبح عبادة وفي المساء صياعة، والعكس تماما في اليوم التالي، ولكني كنت أسمع في لحظات العبادة القليلة في مساجد العالم الإسلامي إما مباشرة أو من خلال التلفزيون والراديو (وأحياناً أقرأ في الجرائد والمجلات) دعوة السادة العلماء إلى وحدة الأمة بأكملها، ولسان حالهم يقول أن لا شيء يعدل مثل هذا الهدف، فهو الهدف الأسمى لهذه الأمة، وقد كانت كتب التربية الإسلامية والتاريخ والجغرافيا وحتى كتب الطبخ والرياضة تلعن بأشد عبارات السب والشتم اتفاقية سايكس بيكو التي قسّمت الأمة إلى دويلات ومزارع على غرار George Orwell's Animal Farm . وقد كان خطاب العلماء من المحيط إلى المحيط (وليس فقط إلى الخليج) هو التخلص من تلك الاتفاقية اللعينة الشيطانية، التي صاغها السياسيون الغربيون الحاقدون وعاونهم على تنفيذها الخونة والعملاء من أبناء هذه الأمة حكّاماً ومحكومين (هذا ليس كلامي، بل هو ما فهمته من لغة المنابر والمساجد قبل حرب الخليج الأولى – وأرجو أن يصححني من عاش في تلك الفترة إن كنت مخطئاً). وجاءت حرب الخليج ووضعت اتفاقية سايكس بيكو على المحك، وأصبح هناك فرصة للتخلص من تبعات تلك الاتفاقيات الغربية التي حيكت ضد هذه الأمة، وتم التخلص من واحدة من تلك المزارع الصغيرة. وبرزت الحاجة إلى استصدار الفتاوى بخصوص تلك الحادثة، فصدرت الفتاوى في اتجاهين اثنين متعاكسين، فكان أهل العلم في الصف الداعم لصدام حسين يتغنون بأمجاد الماضي القديم الذي هو عائد لا محالة على أيدي هذا "البطل الهمام"، وكان العلماء في الطرف الآخر يتوعدون هذا "الشيطان الرجيم" بالعقاب الصارم بكل الوسائل التي

يمكن الوصول إليها، ونحن هنا نثير تساؤلا بسيطاً جداً: يا ترى: هل هذا هو ديننا؟ هل عجز إسلامنا وكتابنا وسنتنا أن يدلّنا على الحق؟ لقد صاغ العلماء في الجانبين حججهم متسلحين بظروف الحال والمكان، أليس كذلك؟ ولكن ألم يكن كل منهم يملك حجة توازي حجة إبليس (إن لم تكن تفوق عليها) في الدهاء والمكر؟ وأين سأكون أنا الذي لا استطيع أن أميّز الغث من السمين في تلك اللحظة؟ إلى أين سأنظم؟ إلى جيش معاوية أم إلى معسكر علي؟! ألا يقع إثمي (بغض النظر عن المعسكر الذي اخترت الانتماء إليه) على كاهل هؤلاء العلماء الذين أوقعوا الأمة بأكملها في حيرة لم تستطع حتى اللحظة الخروج من نتائجها الكارثية.

لقد اختار الكثيرون من علماء الطرف الأول مساندة صدام حسين مدفوعين (على ما أظن) بالقهر الذي كانوا يشعرون به من كل ما يتمتع به أهل الخليج من الثراء، فهم يظنون أن تلك الثروة يجب أن تكون من مقدرات الأمة بأكملها، وها هو المخلص الذي سيعيد الأمور إلى نصابها الصحيح، وفي المقابل اختار الكثيرون من علماء الطرف الثاني (على ما أظن) الحفاظ على مكتسبات يصعب التنازل عنها، ولكن الأمر الذي لا يمكن المجادلة فيه هو قيام كل طرف بإلباس فتواهم ثوباً دينياً، فها هو الطرف الأول يختار النصوص القرآنية والأحاديث النبوية التي تدعو إلى الوحدة ولمِّ الشمل (حتى لو كان ذلك بالقوة)، وها هو الطرف الثاني لا يجد حجة أقوى من مقاتلة الفئة الباغية، المهم بالأمر أن كلا الطرفين أخضع فتواه للتأويل المدفوع بظروف المكان والزمان، فحتى يبرر الطرف الأول حجته ذهب إلى القول بأن صدام حسين سيوحّد صف الأمة وينقذها من تبعات سايكس بيكو وكل مؤامرات الغرب، وبالغ الطرف الآخر في شيطنة الرجل حتى أصبح التخلص منه ومحاربته أمراً مواز في الأهمية والأولوية محاربة الشيطان الرجيم نفسه، وكان المشهد في مساجد الوطن العربي (وحتى العالم الإسلامي بأكمله) على النحو التالي: فريق يرفع يده إلى السماء يدعو لصدام بالنصر وآخر يرفع يديه يدعو عليه بالذل والخزي. فـ إلى من سيستجيب ربنا الذي في السماء؟

لقد استجاب الله دعاء الطرف الثاني فأذلّ صدام وهزمه، أليس كذلك؟ لقد هزم صدام بدعاء مساجد ذلك الطرف؟ وكانت تلك الحجة الأقوى لهذا الطرف: فلو كان صدام مخلصاً لهذه الأمة -كما تظنون- لنصره الله، ولكن انظروا كيف كانت خاتمته؟ لقد كانت هذه هي النتيجة التي خلص إليها

السواد الأعظم من الناس الذين لا يتعدى علمهم الظاهر من الحياة الدنيا (العلم بالقشور). وقد أخذ بعض أهل الفريق الأول يتراجعون عن موقفهم ظانين أنهم (ربما) كانوا مخطئين، وخرجت بعد ذلك الدعوات إلى التقارب من جديد، وتناسي الماضي وفتح صفحات جديدة في كتاب هذه الأمة؟ ولكن يبقى السؤال التالي: ماذا لو حصلت للأمة مشكلة مشابهة (إن شاء الله)، كيف سيكون موقفهم تجاهها؟ إنني لا شك قيد أنملة أنها ستشق الأمة من جديد كما انشقت دائماً. وهذا سيثير تساؤلاً بسيطاً: لماذا؟ الجواب (حسب ظني): أنهم مرض هذه الأمة وعلتها الأولى: العلماء.

ولكن النقاش السابق يثير لدى القارئ الكريم سؤالاً مفاده: أي الفريقين كان على حق؟ وأي الفريقين كان يلبس الباطل ثوب الحق؟

فأرد على هذا التساؤل بالقول أنني لن أدلي برأيي في هذا الموضوع، ولكني سأقترح طريقة بسيطة جداً يستطيع القارئ من خلالها الإجابة بنفسه على هذا التساؤل (وكل تساؤل مثله).

تتمحور الطريقة التي أظن أنها ستخرج الأمة بأكملها من فوضى الفتاوى بالاقتراح التالي الذي يمكن أن نستنبطه باستدعاء آية قرآنية واحدة ستحل الإشكال برمته، والآية الكريمة هي ما جاء في قوله تعالى:

فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ (آل عمران 61)

باللسان on call نعم، لنجمع علماءنا الجاهزين على الدوام (أو ما يسمى الأعجمي) لإصدار الفتاوى، ثم نطلب منهم أن ندعو "أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ" ثم " نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ".

هل هذه هي الطريقة؟ ربما يرد البعض بالقول، نعم، هي كذلك، تدبر – عزيزي القارئ- الآية التي تلي الآية السابقة مباشرة:

إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ ۚ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا اللَّهُ ۚ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (آل عمران 62)

مما لا شك فيه أن كثيراً من علمائنا الأجلاء سيتردد ألف مرة قبل أن يبتهل ليجعل لعنت الله على الكاذبين، ألا ترون ذلك معي؟ فلنمعن التفكير في النتيجة التي يقررها ربنا إن حصل ذلك في الآية التالية مباشرة:

(فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ آل عمران 63)

نعم، هؤلاء هم المفسدون. إنهم الذين لا يؤمنون إيماناً مطلقاً بما يقولون، همهم فقط فلسفة الكلام واصطياد المواقف، ونحن نظن أنهم بذلك إنما يقلبوا الدين من تشريعات ربانية سماوية إلى فلسفية بشرية أرضية.

ولكن ربما يرد البعض بالقول: ماذا لو فعلوا؟ ماذا لو فعلاً ابتهلوا فجعلوا لعنت الله على الظالمين؟ فنرد بالقول: هل كان هذا الابتهال صادقاً أم كاذباً؟ فإن استطاعوا أن يخدعوا الناس العاديين، هل يستطيعون أن يخادعوا الله أو أن يخدعوا أنفسهم؟ لا شك أنهم لن يستطيعوا أن يخدعوا الله، أما أنفسهم فإن خدعوها مرة لن يستطيعوا أن يخدعوها كل مرة، لأن الله قال: الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ الأنعام (82)

فمن أين للعالِم أن ينعم بالأمن (حتى مع نفسه) إن هو ألبس إيمانه بذاك الظلم؟

وللتدليل على الموقف: دعنا نوجه إلى علمائنا الذين يدعون لحكامنا على المنابر بطول البقاء والتأييد سؤالاً بسيطاً: هل فعلاً تؤمنون بذلك؟ هل تعتقدون بصحة ما تفعلون؟ هل تعتقدون فعلاً أن للحاكم الذي تدعون له شرعية دينية؟

وتستطيع أن تكشف صدق دعواه بكل يسر وسهوله: فلو راقبته جيداً لوجدت أنه يناقض نفسه من موقف إلى آخر، وربما في الموقف الواحد، فلو أجرت معه قناة الجزيرة ـ مثلاً ـ لقاءً عن مشاكل الأمة وهمومها لأطاح برؤوس حكام العرب والمسلمين إلى الدرك الأسفل من النار، ولكن لو حدث وأن أجرت معه قناة بلده المحلية لقاءً عن انجازات قيادته الرشيدة، لما ترددت لحظة واحدة أن تستنبط من فتواه (هذا إن لم يكن قد قالها بصريح اللفظ) أن صاحب الجلالة أو السمو أو الفخامة لن يسبقه سوى محمد بن عبدالله إلى أعلى درجات عليين، إنه نفس العالم الذي كان يتحدث قبل قليل عن جواز ضرب عنق الحاكم الآخر لأنه ــحسب معتقده الديني- لو حدث أن أصبح للأمة حاكمين لجاز ضرب رأس أحدهما، ولكن بالنسبة له فالأمر بسيط ومعلل: لا ضير أن يضرب رأس أي حاكم في سبيل وحدة الأمة ما عدا "صاحب" المزرعة التي يعيش هو فيها.

وتستطيع بكل يسر أن تكشف صدق العالم من كذبه بطريقة أقل يسر وسهوله: اسأله عن أمر لا يخصه بالذات ثم أتبع ذلك بما يخصه، وانظر كيف ينتقل إلى المجادلة وإلباس الحق بالباطل إن هو وقع فريسة كلامه،

فعلى سبيل المثال، اسأله عن مسألة انفصال جنوب السودان أو استقلال شمال العراق بالقول: ما رأيك بما يدور في السودان بخصوص مسألة الانفصال؟ أو ما رأيك باستقلال الأكراد في دولة خاصة بهم في شمال العراق؟ وما ظنك بمشكلة الصحراء الغربية؟

لا شك أنك ستجد الغالبية الساحقة من علماء الإسلام ينكرون مثل هذا الصنيع، فهم لا يقبلوا أن تكون جنوب السودان دولة مستقلة، والويل كل الويل للأكراد ولمن يقف في صف البوليساريو من عذاب ربهم يوم القيامة كيف يشرخون وحدة هذه الأمة، وهكذا من عبارات الاستنكار والشجب، وعيونهم تقطر دمعاً على هذه الأمة التي تتمزق من أطرافها، ولن يغيب تاريخ الأندلس وكارثة فلسطين عن خطاباتهم هذه، وسيجلبون لك عشرات الآيات الكريمة التي تدعو إلى الوحدة ومئات الأحاديث التي ربما تكفر من تسوّل له نفسه شق صف هذه الأمة الخالدة الواحدة التي مثلها كالجسد الواحد الذي إن اشتكى منه عضو تداع له سائر الجسد بالحمى والسهر، أليس كذلك؟

والآن جاء دور سؤالك المفاجئ: فما رأيك باستقلال البحرين والإمارات ولبنان والأردن وتونس، الخ، كدول ذات سيادة؟ هل هذه (وكل الكيانات الأخرى من المحيط إلى الخليج دون استثناء) كيانات ذات سيادة تستحق منك أن تدافع عنها يا عالمنا الجليل؟ كيف ينبرى صوتك وترتفع حنجرتك بالتصدي لانقسام السودان والعراق ولا ينبري صوتك لاستقلال تلك المزارع التي في معظمها لا تملك ولو جزءاً من مقدرات جنوب السودان أو شمال العراق؟ لم تقبل أن تكون هنا دولة ذات سيادة تستحق أن تدافع عن استقلاليتها بكل ما آتاك الله من علم، ولا ترضى في الوقت ذات أن تكون هناك دولة مستقلة في شمال العراق بالرغم من أن عناصر الديمغرافيا والجغرافيا والتاريخ وغيرها تؤهل الشمال أكثر من الجنوب ليكون كياناً مستقلاً؟ ثم، ألا تملك جنوب السودان مقومات دولة تزيد عن ما تملكه عشرات المزارع العربية الأخرى؟ أيهما أحق بالانفصال جنوب السودان أم لبنان؟ لم ترتفع الاصوات و يجتمع زعماؤك وقادتك ومن ورائهم علماؤنا الأجلاء للتأكيد على سلامة لبنان واستقلاليته ولا يجتمعوا للمطالبة بحق تقرير المصير لجنوب السودان أو شمال العراق؟!

الجواب الجاهز عند هذه الشرذمة من العلماء: يكفي هذا الانقسام الحاصل فلم نزيد الطين بلة! ربما هكذا سيرد معظم علمائنا الأجلاء.

ولكن يا سادة هل هذا هو موقف الدين؟ هل هذا هو إسلامنا؟ هل نعطي الفتوى الشرعية (الرخصة) لما حصل وتم، ونتوقف عن إعطائها لما سيحصل؟ هل هو حق لمن حصل عليه وليس حق لمن لم يحصل عليه بعد؟ لقد أذهلني موقف بعض علماء المسلمين في جنوب السودان عندما نادوا بأن هذا شأن دنيوي ولكل شخص الحق في الاختيار؟ هل فعلاً عجز ديننا أن يكون له موقف ثابت من مثل هذه القضايا؟

أقول لكل علماء المسلمين لا يجوز لكم أن تحلوا لأنفسكم ما تحرموه على غيركم، لو فعلاً اتخذ علماء المسلمين موقفاً مبدئياً مدفوعاً بالفتوى الدينية ومجردة عن العوامل الخارجية رضي من رضي و غضب من غضب، وطبقوها على أنفسهم (قبل أن يطالبوا غيرهم بتطبيقها) لما استطاعت أن تعلو حنجرة واحدة بعكس ذلك؟ ولكن كيف لك أن تطبق الدين عليّ ولا تطبقه على نفسك؟ أليس تلك إذاً انتقائية مقيتة؟ أليس من حقي أن أحصل على ما كنت قد حصلت عليه أنت؟ كيف بك تهاجم دعاة القومية في شمال العراق أو جنوب السودان وأنت نفسك من تدافع ليس فقط عن القومية بل عن القومية القطرية التي لا تستند إلى أي مقومات الاستقلال أو السيادة؟ إنّ من يرضى بأي قطر عربي كوحدة سياسية مستقلة ذات سيادة لا يجوز له أن ينبت ببنت شفة أو أن يصدر الفتاوى بخصوص استقلال أقطار وظهور قوميات جديدة. إن الذي قبل أن تكون لبنان أو الأردن أو الكويت أو السعودية أو سوريا أو مصر دولا وكيانات مستقلة لا يجب عليه أن يخضع غيرهم لفتاوى الدين التي تحرم عليهم الاستقلال أو الانفصال، فلا تحلوا لأنفسكم ما تحرموه على غيركم.

أيجوز أن تتمتع كل حارة في دول الخليج بثروة النفط الذي تمتلكه ومن ثم تحرّم ذلك وتمنعه عن شعب بأكمله في جنوب السودان تفوق مساحة بلدة المفترض مساحة فرنسا العظيمة؟ كيف بك تجيز لنفسك التمتع بثروات محافظة كانت يوماً في جنوب العراق وتحرّم ذلك على عدة محافظات مجتمعة في شماله؟

عزيزي العالم، إنّ من أراد أن يتصدى لهمّ الأمة أو أن يتكلم بشأن الفتوى فعليه أن يتحمل هو نفسه تبعاتها قبل غيره حتى لو كان ذلك يمسّه شخصياً، فالعدل العدل، قال تعالى:

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَأَصَابَتْكُمْ

مُصِيبَةُ الْمَوْتِ ۚ تَحْبِسُونَهُمَا مِنْ بَعْدِ الصَّلَاةِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ إِنِ ارْتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۙ وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ إِنَّا إِذًا لَمِنَ الْآثِمِينَ (المائدة 106)

وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ ۖ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ ۖ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۖ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ الأنعام (152)

فـ يا أيها العلماء دعوني أذكركم بأن هؤلاء الذين تنحازون إلى صفهم لن يغنوا عنكم من الله شيئاً، ولن يحملوا من أوزاركم شيئاً، فاتقوا الله في الناس واتقوا الله في أنفسكم:

وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۗ إِنَّمَا تُنْذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ ۚ وَمَنْ تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِ ۚ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ فاطر (18)

المثال الثاني: العمل في دول الخليج

الفتوى: حرام حرام حرام

نعم، إننا نعتقد أنه لا يجوز العمل في دول الخليج العربي، وعلى كل مسلم ومسلمة يعمل في تلك الدول أن يتنازل عن عمله ويعود إلى بلده فوراً، ونحن نظن أننا نملك الدليل من كتاب الله على هذه الفتوى التي نشعر أننا (على استعداد أن نتحمل تبعاتها الدنيوية والأخروية (في الدنيا والآخرة وحتى نوضح ما نقصد من هذه الفتوى، فيجب أن نذكّر مرة أخرى في هذا المقام بالتساؤل الذي دافعنا عنه في المقدمة ألا وهو: هل يجب أن نتذرع بالحجج (الواهية) مهما بلغت من قوة في الإقناع إن هي عارضت النص الديني؟ الجواب كلا، فلا يجب أن يتقدم أي عذر أو حجة على صريح اللفظ في النص الديني الذي يجب أن نحتكم إليه، فالوقوف عند النص هو من أهم سمات فكرنا الديني الإسلامي، وإذا ما أصبح هناك تعليل عارض صريح ومضمون النص فيجب أن يضرب بذلك التعليل عرض الحائط، ونحن نفهم أن الالتزام بالمسلمات الدينية أهم بكثير من التبريرات التي يمكن أن تساق لمخالفة تلك المسلمات.

ولهذا فإننا نؤمن أن المسؤولية الأولى للعلماء هي: أن ينبري كل عالم للدفاع عن قداسة النص الديني، وليس تبرير ما يخالف النص الديني، وفي هذا سؤالُ يطرح على كل علماء الخليج العربي أولاً (وهم الذين غزوا الفضائيات وهدفهم لا شك لتكون كلمة الله هي العليا)، وعلى بقية علماء

الإسلام من بعدهم، سؤال فحواه: أيهم أعلى مقاماً وأرفع منزلة –حسب فكرنا الديني- المسلم أم غير المسلم؟ لا أظن أن أحداً من علماء الإسلام يستطيع أن يجادل في أن المسلم يجب أن يقدم على غير المسلم في كل شيء، أليس كذلك؟

ولو قرأنا نصوص كتابنا العزيز لوجدنا العشرات من الآيات الكريمات التي تقدم المسلم على غير المسلم، ولوجدنا الآيات التي ترفع من شأن المسلم وتحط من شأن غير المسلم، ولو تفحصنا السنة المطهرة لوجدناها تطبيقاً عملياً لمثل هذا الاعتقاد، ولما وجدناها خالفت هذا المبدأ تحت أي ظرف أو بأي حجة كانت.

ويقودنا هذا الفهم إلى إثارة تساؤلاً بسيطاً: هل انبرى علماء الإسلام للدفاع عن هذا المبدأ؟ ألا يرى علماء الإسلام حق المسلم ينتهك صباح مساء مقابل ما يتمتع به غير المسلم في بلاد الإسلام نفسها؟ وفي الجهة الأخرى كيف يقبل من يظن نفسه مسلما أن يعامل بطريقة دونية، يُقدّم فيها غير المسلم عليه في كل شيء، لا شك أنهم يتعللون بحجج ودوافع الزمان والمكان والحاجة الملحة، الخ. ولكن هل تجوع الحرة لتأكل بثدييها.

وحتى لا يبقى كلامنا نظري فإننا نقدم مثال العمل في دول الخليج (ولا يظن أحد أن هذا ينطبق على دول الخليج فقط وإنما هي الحال في كل بلاد الإسلام، ولكن المشكلة أكثر وضوحاً في دول الخليج لحجم العمالة الأجنبية فيها).

لعل كل الذين عملوا (وربما الذين لم يعملوا في دول الخليج) قد علموا بخبر الفرق في الأجر بين من هو خليجي ومن هو غير خليجي، ففي حين يتقاضى الخليجي أجراً يفوق أضعاف ما يتقاضاه الوافد المسلم، ما يكون من أمر هؤلاء "الغرباء" إلا أن يقبلوا بواقع الحال، وقلوبهم "من الداخل تلعن اليوم الذي أضطرهم للعمل في مثل هذا الموقع"، ونتيجة لذاك فغالباً ما يغيب الإخلاص في العمل، فيوقعهم مثل هذا الواقع في محرمات أشد خطورة.

ولو توقف الأمر عند هذا الحد لقلنا أن ذلك يبقى تفاضلاً بين أبناء المسلمين أنفسهم، ولكن ما يزيد الطين بله هو ما يكون من أمرهم مقارنة بمن يحمل جواز السفر غير العربي وغير الإسلامي. فلا شك أن من يحمل الجواز السفر الغربي يتقاضى أجراً يفوق أضعاف ما يتقاضاه من وصل إلى تلك البلاد من أرض الإسلام والمسلمين لنفس العمل، فغالباً ما أبرمت العقود على جواز السفر، فلو كان المسلم يحمل جواز سفر غربي (أمريكي أو

أوروبي) لتقاضى بالدولار أو اليورو أضعاف ما يتقاضاه المسلم الذي يحمل جواز سفر بلد عربي أو إسلامي بالدينار أو الريال.
وللأسف الشديد تجد من العلماء من يقوم بتبرير مثل هذا الفعل، ولسان حالهم يقول: كيف يرضى الأوروبي بالأجر الذي يرضى به المسلم أو العربي؟ إذاً لا بد من دفع الأجر حسب حالة السوق، فنرد على مثل هؤلاء العلماء بالقول: نعم هي كذلك! إنّ حاجة السوق (حسب النظرية الرأسمالية) تقدم على النص الإلهي الذي يشدد على أن المسلم هو أعلى شأناً من غير المسلم، أليس كذلك؟ ألا تتقون الله في أبنائكم ونسائكم وأنفسكم؟ أقول لمثل هذه الشرذمة من العلماء إذاً دعونا ندعو أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل معاً إلى الله فنجعل لعنت الله على الكاذبين، ولننتظر لنرى من سيكون لهم الأمن وهم مهتدون.
وفي المقابل، كيف سيكون رد من رضي بهذا الأمر من أبناء المسلمين أنفسهم؟ لا شك أن ذلك معلل بدافع الحاجة، أليس كذلك؟ كلا وألف كلا. فلو أمعنا النظر في تلك العمالة لوجدنا أن معظمها هي من الأيدي الماهرة التي كانت لها فرص لا بأس بها في بلدها، ولكنها ذهبت إلى دول الخليج بسبب المغريات (الفرق بين حالهم في مسقط رأسهم وما سيتقاضونه في بلاد الخليج)، فهل أشرف هؤلاء على الهلاك حتى اضطروا للعمل في تلك البلاد، ويقبلوا ذلك الوضع الذي يحط من قدرهم كمسلمين؟ وماذا لو تبين أن كلامنا هذا صحيح، وأنه لا يجوز للمسلم أن يرضى بأن يكون أقل شأناً من غير المسلم مصداقاً لقوله تعالى:
يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ ۚ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ (8)؟
فماذا سيكون ردهم على سؤال ربهم: لماذا رضيتم بهذا الوضع؟ ثم لنسأل الصادقين المخلصين من أبناء الأمة الإسلامية: أتقبل أن ينتهك مبدأك وعقيدتك مقابل ثروة الأرض بأكملها؟ ألا ترى أنك لو تركت ذلك لله وحده، ألا تعتقد أن الله سيبدلك خيراً منه؟ إننا نؤمن أيماناً مطلقاً أن الحفاظ على مثل هذا المبدأ (أي أن تكون العزة لله ولرسوله وللمؤمنين) لا يقل في أهميته عن إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان، فهذه شعائر ديننا وذلك مبدأ من مبادئه، فكما لا نفرط بالشعائر فلا يجب أن نتنازل عن المبادئ.
ثم لننظر مع المسلم العامل الذي يقبل بواقع الحال إلى الأمر من زاوية

أخرى، فنقول له: إلى من ستجني تلك "الثروة"؟ لزوجتك؟ لأبنائك؟ ألا ترى أنك كلما جنيت لهم أكثر كلما زادت طلباتهم؟ هل الحصول على المال لبناء القصر، وشراء السيارات الفارهة، الخ، أهم لديك من أن تحافظ على عقيدتك ودينك؟

وسيرد البعض بالقول: هل أنا وحدي من يفعل ذلك؟ وهل سيقوم الدين كله على ظهري أنا؟ فنقول نعم، ونرد عليك بآية واحدة من كتاب الله:

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ ۖ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ ۚ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ المائدة (105)

إننا نخلص إلى نتيجة واحدة مفادها أنك إذا كنت تعتقد أن هذا الوضع (العمل في دولة إسلامية بأجر أقل من الأجر الذي يتقاضاه غير المسلم لنفس العمل) يتعارض مع عقيدتك، فلا يجب أن تتمسك بهذا العمل لحظة واحدة مهما كانت المسوغات والمبررات، إن الحفاظ على دينك وإقامة مبادئه أولى من التمسك بمتاع من الدنيا زائل.

ولنتخيل الموقف على الوجه التالي: لنتصور أن الغالبية الساحقة من أبناء الإسلام رفضوا أن يكونوا أدنى من غير المسلم في المعاملة، ألا ترى أن ذلك سيردع أصحاب القرار السياسي عن انتهاك محارم الله؟! ألا ترى أن في ذلك إقامة لحدود الله؟ فهل الحد هو رجم الزناة أو جلدهم وقطع يد السارق وكفى؟ وماذا سيفعل هؤلاء بقول ربنا:

وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَر

(العلماء هم الظالمون (2

تنبيه (1): يرجى من القارئ الكريم قراءة هذه المقالة في ضوء ما ورد في مقالتنا السابقة، فهذه المقالة هي الثانية في سلسلة مقالاتنا تحت

عنوان والعلماء هم الظالمون.
تنبيه (2): هذه المقالة تعبر فقط عن وجهة نظر كاتبها، وهي بأي حال من الأحوال غير ملزمة إلا له، لأنه يعتقد أن هذا هو الحق، ولو استطاع أحد أن يثبت خطأ الكاتب، فهذا مما سيثر البهجة لديه، وهو (أي الكاتب) لا شك مستعد ليتخلى فوراً عن هذه الآراء، لذا فإننا نهيب بالإخوة القراء أن يبحثوا عن فجوات في هذا الطرح ليتم تصحيحه، كما نهيب بالقارئ الكريم أن لا يؤمن بما جاء في هذه المقالة لأن الإيمان بذلك يعني إقامة الحجة عليه، وبالتالي تحمله تبعات مثل هذه المواقف التي من الممكن أن تكلفه ما (قد) لا يحتمله، لذا فإننا نرى أن لا يكلف القارئ نفسه عناء قراءتها في البدء، وإن على recycle bin هو فعل أن لا يقتنع بما جاء فيها، ومن ثم إلقائها إلى جهاز الحاسوب.

أما بعد:

والعلماء هم الظالمون (2)
لقد زعمنا في مقالتنا السابقة أن العلماء هم من أهم أسباب وقوع الظلم على الناس، لذا فقد ذهبنا إلى القول أن العلماء كانوا على الدوام سبب بلاء هذه الأمة كما كانوا سببه الأول والأخير عند الأمم الأخرى، وقدمنا عدة أمثلة على وقوع الظلم بين الناس بسبب فتوى شرذمة من الناس يسمون أنفسهم (ويظن السواد الأعظم من الأمة أنهم) علماء هذه الأمة، والأمثلة التي قدمناها في مقالتنا السابقة هي:

1. **حرب الخليج**
2. **العمل في دول الخليج العربي**
3. **جواز السفر الغربي**
4. **حكومة سمير لا قمحة ولا شعير**

أما في مقالتنا هذه فسنقدم مثالاً جديداً من واقع ما حصل لهذه الأمة مع بداية هذا العام 2011، ونخص بالذكر ما حصل من تحولات جذرية في السياسة تمثلت بسقوط فراعنة وأكاسرة وقياصرة هذه الأمة عن عروشها، وما رافقها من فتوى دينية أحلت تارة وحرمت تارة أخرى، فأوقعت الناس في حيرة. والفتاوى التي سنتناولها في هذا الجزء من المقالة هي

1. **فتوى الشيخ القرضاوي**

2. فتوى الحبيب الجفري
3. فتوى شيخ الأزهر
4. فتوى مجمع كبار علماء "السعودية"

فتوى الشيخ القرضاوي
قال تعالى:
وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ
البقرة (42)

إننا نزعم أن هذا الشيخ هو من الذين "يكتمون الحق وهم يعلمون"، ومقالتنا هذه تقدم الدليل على هذا الزعم.
في مقابلة على قناة الجزيرة في برنامج "الشريعة والحياة" في واحدة من أيام أحاد هذه السنة المباركة بحول الله وتوفيقه، خرج الشيخ القرضاوي يزأر كالأسد (بعد سقوط زين العابدين بن على عن سدة الحكم في تونس) أقول خرج يزأر بكل عبارات الشتم على هذه الطاغية الذي ظلم العباد ونهب البلاد، وأثنى على الثورة التونسية وما أنجزته في هذه الفترة الوجيزة، وقد خرج بعد ذلك عدة مرات يثني ويشجع المصريين والليبيين على الاستمرار في الثورة ضد الطغاة لإسقاط أنظمة الحكم تلك، ولا شك أن الشيخ القرضاوي كان يتحدث بصفته كرئيس لمجمع علماء المسلمين.
ما أود أن أقوله هو لا بارك الله بذاك الشيخ، ولا بارك الله بذاك المجمع الذي يمثله إن كان الدين هو على تلك الشاكلة التي يقدمونه للناس، أما عن سبب هذا الموقف فأنا أعتقد أن هذا الشيخ ومن يمثّلهم هو ممن يكتمون الحق، ويتصيدون الفرص لاغتنام المكاسب، لذا يجب على الأمة أن تحذر من فتواهم، وأن لا تأخذ بها إطلاقاً، وهذا ما سنبينه في هذا الجزء من المقالة.
لقد نبع هذا الموقف من مشاهدتين رئيسيتين تتعقلان بموقف هذا الرجل:
أولا، أن الكلام المباشر الصريح ضد طاغية من حكام المسلمين لم يخرج من هذا الشيخ وأمثاله إلا بعد نجاح الثورة التونسية، ولم تكن فتواهم هي المحرك الذي دفع الناس للخروج إلى الشارع والتظاهر، فما سمعنا فتوى لهذا الشيخ ومن يمثلهم (ممن يسمون أنفسهم بالعلماء) إلا بعد سقوط الطاغية، فخرجت ألسنتهم من حناجرهم تكيل لتلك الجثث الهامدة كل عبارات

التجريح والشتم، وما أظن ذلك إلا لجني ثمار تلك الثورات، واللحاق بركب الشعوب مخافة أن يبقوا في المؤخرة، وقد كان لهم ما أرادوا، فذهب شيخنا ليكون خطيب وإمام صلاة الجمعة بعد نجاح الثورة المصرية، أليس كذلك؟ ولكن ربما يبادرنا البعض بالقول بأن هذا هو موقف معظم علماء المسلمين وليس القرضاوي فقط من فعل مثل تلك الفعلة، فما الضير في ذلك؟ فنقول نعم هو كذلك، وما كنت سأهاجم موقف الشيخ لو أنه توقف عند هذا الحد، فأنا أعلم بالقطيعة بين الشيخ والنظام المصري التي استمرت سنوات عديدة، ولا شك فإن الشيخ قد تحمل تبعات موقفه ذاك، وأسأل الله له الأجر على ذلك، ولكن المشكلة عند هذا الشيخ (ومن دار في فلكه) تجلت أكثر في المشاهدة الثانية التالية، وهي التي قللت من رصيد هذا الشيخ عند نفر من أبناء المسلمين.

ثانياً، أنا أتحدى أن يخرج هذا الشيخ وأمثاله بفتوى وجوب الثورة على من تبقى من أولئك الزعماء العرب الذين لا يزالون يظلمون العباد وينهبون البلاد، بل على العكس، ففي نفس المقابلة السابقة الذكر مع ذاك الشيخ على قناة الجزيرة عندما كان يزأر كالأسد (فالأسود لا تقترب إلا من الجيف) على بن علي بعد سقوطه، بادره مقدم برنامج الجزيرة بسؤال مفاجئ عن موقفه بخصوص قيام السعودية بإيواء بن علي عندما رفضه أشد حلفاءه قرباً له وهم الأوربيون والفرنسيون على وجه التحديد، فما كان من ذلك الشيخ إلا أن هبط صوته بشكل ملفت للنظر، وأخذ يتنصل ويراوغ في الإجابة قائلاً "لكنه في السعودية كأنه سجين (قاصداً بن علي)"، ونحن نثير هنا عدة تساؤلات منها: لم لم يصدر الشيخ الجليل الفتوى التي يعتقد أنها الحق بحرمة إيواء بن علي في أرض الحجاز (لا بل وفي بلاد الإسلام والمسلمين كلها)؟ فهل يجوز - يا شيخنا الجليل- أن يحتمي من قاتل الإسلام وقهر المسلمين عقوداً من الزمن في أشد بلاد الإسلام قداسة؟ لم لم تصدر فتواك بأن من يحترم نفسه ويحترم شعبه (ويحترم حتى حيوانات مزرعته)، لا يمكن أن يقبل إيواء مثل ذاك الطاغية ناهيك أن يكون ذلك في أرض الحجاز (أرض الإسلام والمسلمين)؟

ثم لنسألك –يا أيها العلامة كما يعرف بك مقدم برنامجك المفضل على قناة الجزيرة- السؤال الأكبر وهو: لم لا تصدر فتواك بخصوص "دول الخليج" ونظام الحكم والقهر فيها كما أصدرتها بحق تونس ومصر وليبيا؟ ولم لا تصدر فتواك تلك بحق سوريا والأردن والعراق والسودان والمغرب وقطر

وعمان؟ ولم لا نسمع منك الدعم للمحتجين في البحرين كما فعلت في الحالة التونسية والمصرية والليبية؟ هل لا زلت تنتظر حتى تبدأ الثورة في "السعودية" مثلاً وتأتيك الأخبار بحتمية نجاحها حتى تصدر فتواك؟ هل هذا هو الدين حقاً وهذه هي الفتوى الدينية؟ أم هل لا زلت بعد هذا العمر لا تستطيع إلا أن تغازل آل ... وآل ... وآل ... الخ؟ هل لا زالوا أولياء نعمتك والمغدقين عليك من أموال المسلمين المنهوبة؟! أم أنكم ما انفككتم تظنون أن الفتاوى الدينية كنطفكم لا بد أن تتخيروا لها؟!

ألم يكن الأجدر بك أن تقول لكل من يؤوي ذاك الطاغية فلتهنأ به حتى يأتي دوركم؟ ألم يكن الأجدر بك أن تشد من عزم أهل أرض الجزيرة العربية وأرض الشام والرافدين كما فعلت في أرض الكنانة وتونس الخضراء وأرض أحفاد المختار لينتفضوا هم ضد طغاتهم الذين قهروهم ونهبوا ثرواتهم كما انتفض غيرهم؟ ألم يكن الأجدر بك أن تحذر من يؤوي هذا الطاغية (وأمثاله من شرذمة الحكام الذين تهاوت عروشهم والذين ستتهاوى عروشهم بحول الله وتوفيقه) أن في صنيعهم هذا ازدراء وتحقير لمشاعر شعوبهم ومشاعر الشعوب العربية والإسلامية كلها يوم أن قبلوا أن تدوس أقدامه تلك الأرض الطيبة؟

إننا نعتقد أن المشايخ أصحاب العمامات البيضاء والسوداء (على حد سواء) الذين يسكتون عن قول الحق مخافة أن يغضبوا أولياء نعمتهم لا يختلفوا في مواقفهم هذه كثيراً عن السياسيين الانتهازيين الذين يقضوا جل أوقاتهم خارج البلاد، ولا يعودون إليها إلا بعد نجاح ثورات شعوبها ليقطفوا هم ثمارها ومكاسبها، أقول لو كانت شعوبنا على درجة كافية من الوعي ما قبلت هؤلاء في صفوفها، وما قدمتهم إلى الصف الأول ليقودوا الناس بعد كل تلك الدماء التي سالت.

إنني لا أقبل من هذا الشيخ وأمثاله بأقل من أن يخرج بفتوى وجوب الجهاد ضد حكام العرب من المحيط إلى الخليج دون استثناء (هذا إن كان يؤمن أن من واجب المسلمين أن يثوروا على ظلم حكامهم في تونس ومصر وليبيا)، أم هل لازال الشيخ يتخيّر الفتوى ليسلطها على رقاب البعض دون البعض الآخر؟ فلا أظن أن إنساناً سوياً يعتقد أن الظلم الذي حصل في تونس ومصر وليبيا أقل من الظلم الذي لا زال يحصل في سوريا والأردن والعراق والسعودية وقطر وعمان واليمن والإمارات والمغرب والجزائر وموريتانيا والسودان والصومال. وهل أعتقد - يا شيخنا الجليل- أن أرصدة زين

العابدين وحسني والقذافي في الخارج بأكثر من أرصدة من لازال قابعاً على كرسيه ولم تطح به رياح الثورات بعد. أم هل تظن أن ليلى الطرابلسي وسوزان مبارك قد أنفقن من أموال الشعوب على دور الأزياء والحلي والمجوهرات بأكثر مما تنفق زوجات من تبقى منهم؟ وهل تظن يا شيخنا الجليل أن أقرباء وأنسباء الرئيس وزوجاتهم في تونس ومصر وليبيا بأكثر من أقرباء وأنسباء أصحاب الفخامة والسمو والجلالة في البلاد التي لم تتقد الثورات فيها بعد؟ فأين فتواك فيمن تبقى؟ أم أن الفتوى للأموات فقط؟ أتق الله يا شيخنا في الأمة، وقل كلمة الحق شاء من شاء وغضب من غضب، ولا تكن ممن يعلمون الحق ويكتمونه، ولو نطقت أنت (وأمثالك ممن يتصدون للفتوى) كلمة الحق في كل حين، لما وصلت هذه الأمة إلى الحضيض، وبقيت في ذيل القافلة مئات السنين، ولما استبد هؤلاء الشرذمة من الحكام الذين امتطوا ظهوركم ليحكموا الناس بالحديد والنار والفتوى الكاذبة.

(المجد والخلود لـ بوعزيزي، والخزي والعار لحكام العرب وعلماء السلاطين)

فتوى الحبيب الجفري
قال تعالى:
وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ
البقرة (42)

إننا نعتقد أن هذا الشيخ قد ألبس الحق بالباطل، ومقالتنا هذه تحاول تقديم الدليل على هذا الزعم
أجرت قناة تلفزيونية مصرية موالية لحسني مبارك في منتصف الثورة المصرية اتصالا هاتفياً بالداعية اليمنية الحبيب الجفري ليبدي رأيه فيما يخص الثورة المصرية، فكان ذلك الشيخ أكثر دهاء ومراوغة من الشيخ القرضاوي، فراوغ في الكلام حتى قلب الأبيض إلى أسود والأسود إلى أبيض، وانتهى في كلامه إلى وجوب الكف عن التظاهر، والمقصد الشرعي لديه هو حقن دماء الناس. وذهب إلى مقارنة ما يحدث في مصر في تلك

اللحظة مع ما يمكن أن يحدث في اليمن (وقد كانت المظاهرات اليمنية لا زالت في بدايتها)، وانتهى إلى القول أن اليمن شعب مسلح ويمكن أن يتسبب ذلك في حرب أهلية طاحنة، لذا من الحكمة (حكمته هو بالطبع) التعقل والكف عن التظاهر والخروج إلى الشارع.
نعم يا شيخنا الجليل، إنّ من الحكمة أن تتعقل الشعوب، ولكن لدي سؤال بسيط جداً، أليس من الحكمة أن تتعقل الأنظمة أيضاً؟ ثم أليس من الحكمة أن نطلب الحكمة من أهل الحكمة أصلاً؟ أليس حكام العرب هم أحكم الناس وأعقلهم؟ أليس كل واحد منهم هو الحاكم الملهم الذي لا يخطئ؟ لم إذاً لم توجه كلامك إلى أولئك الحكماء أن يتعقلوا هم ويتنازلوا عن الكراسي التي التصقت بقفاهم عقوداً من الزمن؟ هل من الحكمة أن تطلب الحكمة من أهل الجهالة كهؤلاء الجياع الذين خرجوا إلى الشوارع بحثاً عن رغيف الخبز في مكبات الزبالة؟ ألم تخطب علينا يا شيخنا عن ذاك الصحابي الذي قال "عجبت لمن لا يجد قوت يومه كيف لا يخرج شاهراً سيفه"؟ أم أن ذلك كلام يخص الزمن الغابر، ومن غير الحكمة أن نتمثله نحن في زمننا؟ أليس من الحكمة أن تقول لجميع حكام العرب (من قضى نحبه منهم ومن ينتظر) كفاكم ما نهبتم من أموال العرب وأودعتموها في بنوك وبورصات الغرب؟ أليس من الحكمة أن تقول لهم كفاكم ما أنفقتم أنتم وأبناءكم (وحتى كلابكم) من أموال الضعفاء والمساكين على دور الملاهي والقمار في فينا ولاس فيقس، الخ؟ هل تتوقع بمن لا يجد وظيفة مدى عشرين سنة أن يسكت عندما يسمع عن المليارات التي ستجمدها بريطانيا وفرنسا وأمريكيا وغيرها من دول الكفر والإلحاد لهؤلاء الشرذمة من الحكام الفاسدين الذين لم يرقبوا في مؤمن إلاًّ ولا ذمة؟

(المجد والخلود لـ بوعزيزي والخزي والعار لحكام العرب وعلماء السلاطين)

فتوى شيخ الأزهر
لا شك أن الأزهر وأمثاله من دور العلم الإسلامي لم يعد في زمن هؤلاء السلاطين وعلمائهم أكثر من أراجوز، كل شيء فيه ممكن إلا العلم، سمّيه ما شئت: دار أمن دولة، دار سياسة، دار لهو، الخ، لكن لا تسميه دار علم.

فهو أبعد ما يكون عن العلم كمؤسسة دولة، فالعلم الذي فيه هو في خدمة السلطان وزبانيته وحتى عشيقاته، ولكنه لا يخدم الإسلام ولا المسلمين، فها هو شيخ الأزهر كشخص والأزهر الشريف كمؤسسة لا يتردد في الوقوف في صف الرئيس ويتحدى مشاعر المصريين كلهم والعرب والمسلمين من ورائهم، والهدف هو إرضاء الرئيس حتى لو كلف ذلك غضب كل المسلمين على وجه البسيطة.

لا شك أن تلك هي الفتوى الدينية التي ترضي الرئيس حتى ولو كان ذلك على حساب رب الرئيس، فالرئيس في الديانة الفرعونية هو ابن الآلهة، والأزهر الشريف ليس أكثر من معبد للإله وأبن الإله، فطاعة أبن الإله مرضاة للرب نفسه. ولكن يا ترى: هل ثبت شيخ الأزهر على موقفه هذا الذي نبع في الأصل من عقيدته الدينية؟ أم هل تتغير عقيدته الدينية بتغيير الرئيس؟ وأخشى ما أخشاه أن يكون هو وأمثاله يظنون أن الحكمة هي ما فعله أسلافهم، فأنزل الله قرآناً يتلى بحقهم في قوله تعالى:

الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ۚ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۗ وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا

النساء (141)

المحزن (ولكن ليس غريبا على أمثال هؤلاء المتسلقين المنتفعين) في الأمر أن شيخ الأزهر لم يلتزم بمبدئه الديني الذي شرعه عن علم لحظة واحدة بعد أن سقط ابن الآلهة، فركض يبحث له عن ابن آلهة جديد حتى لا تفوته الغنائم، وليكون في خدمة سيده الجديد، فعقد مؤتمره الصحفي ليتبرأ من فتواه السابقة بخصوص مولاه وولي نعمته السابق (حسني المخلوع)، ولم يجد بدّاً (كما فعل غيره) من التعذر بالحكمة لتبرير تلك الفتوى السابقة وذلك الموقف، فالحكمة ومقاصد الشريعة لا تفوت مثل هؤلاء العلماء (الكبار في أعين الجهّال، الصغار في عين رب الناس)، فقد كان قلب شيخ الأزهر ينفطر للدم المصري الذي كان يسيل، وقد لحن في القول كما فعل القرضاوي والجفري من قبل، ولكن أود يا شيخي الجليل أن أسألك سؤالاً بسيطاً: لم لم يرتفع صوتك وينفطر قلبك على الدم المصري الذي سال تحت الأرض في أقبية السجون والتعذيب سنين كثيرة؟ لم لم ينفطر قلبك على المال المصري الذي سال أغزر من جريان النيل في بنوك فرنسا وسويسرا ونيويورك ولندن؟ لم لم ينفطر قلبك على ملايين المصريين الذين تشردوا في كل

المعمورة بحثاً عن لقمة العيش التي لم يجدوها في مصر، مصر الحضارة، مصر التاريخ، ومصر الزراعة؟ ألم تقرأ في كتابك الذي حولته إلى قراطيس تبدونها وتخفون كثيراً منها أن الله طلب من بني إسرائيل أن يهبطوا مصراً ليبحثوا عن البقل والقثاء والفوم والعدس والبصل؟ كيف تحولت مصر الزراعة والخصب بشهادة رب العباد إلى مصر الجوع والمرض والجفاف؟ الجواب (حسب ظني) هو: لقد حصل كل ذلك يوم كان ابن إلهك (حسني المخلوع) هو حاكمها وأنت سادن معبدها (الأزهر).

(المجد والخلود لـ بوعزيزي والخزي والعار لحكام العرب وعلماء السلاطين)

(ملاحظة مهمة جداً جداً: إنني أتقدم بطلب إلى النائب العام المصري بإلقاء القبض على شيخ الأزهر والبابا شنودة بتهمة التواطؤ مع النظام السابق والتآمر على إفشال الثورة المصرية المجيدة)

فتوى كبار علماء "السعودية"
الناس يسموهم كبار علماء السعودية، وأنا أزعم أن الصفة الحقيقية التي تميزهم هي "كبار ... السعودية"

الزمان: 3/7/ 2011
المكان: شاشة الجزيرة
الخبر: "كبار علماء السعودية يحرّمون المظاهرات"

في صباح ذلك اليوم، وعندما كنا نبحث عن خبر ربما يفرّج الصدر ويفرح القلب في الأزمة الليبية التي انطلقت شرارتها للتخلص من طاغية أخرى من طغاة هذا الزمان، وقد كانت أخبار حمام الدم الذي يسيل في ليبيا تتشقق لها الحجارة، وما هي إلا لحظات حتى قرأت ذلك الخبر الصاعق وهو يظهر على الشريط الإخباري على شاشة قناة الجزيرة، وقد كان مفاد الخبر هو: تحريم الخروج في مظاهرات، وقد كان هذا الخبر صادرا عن ما يسمى "بهيئة كبار علماء السعودية"

السؤال: ماذا تتوقع أن تكون ردة فعل كل مسلم في كل مكان على مثل هذه الفتوى؟
الجواب حسب منطق "هيئة كبار العلماء": هذا هو الدين رضي من رضي وغضب من غضب، أليس كذلك؟
"يا شباب ليبيا، يا ثوار ليبيا، يا جرحى ليبيا، يا قتلى ليبيا" اسمعوا فتوى كبار علماء السعودية: ما تفعلونه حرام. ما تفعلونه حرام، ما تفعلونه حرام. فالقذافي من ورائكم ونار جهنم من أمامكم، ولكم الخيار. إما أن ترضوا بالقذافي في الدنيا أو أن رب "كبار علماء السعودية" سيدخلكم النار بعد أن يذبحكم القذافي ذبح النعاج.
يا كل شعوب العرب التي تحررت والتي لم تتحرر بعد، المعادلة حسب رأي "كبار علماء السعودية" هي: أن ترضوا بحكامكم أو أن الله سيسكنكم في صقر، وما أدراك ما صقر، لا تبقي ولا تذر، ولكم الخيار.

المحزن (وليس الغريب على مثل هذه الشرذمة من المنتفعين) أن تلك الفتوى قد خرجت من "علماء السعودية وهاجسهم الأكبر ليس ليبيا أو تونس أو مصر أو الأردن أو اليمن (هذا وقد بارك بعضهم الثورات في تلك البلاد إن لم يكن في العلن فبينه وبين ضميره الذي رضي أن يريحه من عناء العمل بعض الوقت)، وإنما دول الخليج وخصوصاً السعودية نفسها، فالمعادلة حسب تلك الفتوى تكون لأهل تلك الديار على النحو التالي: إما أن ترضى أن يحكمك آل ... و آل... و آل... إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، أو أن يدخلك الله أشد العذاب (ربما مع آل فرعون: النار يعرضون عليها غدواً وعشياً). عليكم إذاً أن تحسموا أمركم، ثم لا يكن أمركم عليكم غمة.

نقول لهذه الشرذمة من العلماء إذا كان هذا هو الدين فعلاً، فـ والله الذي لا إله سواه لا نريده، وإن كان هذا هو حكم الرب الذي تقصدونه فوربي إنه ليس بربي. فلكم دينكم ولي دين. هل هي سنة الله في الأرض أن يكون آل ... هم خلفاء الله وساسة الناس على الأرض؟ هل هي سنة الله أن يبقى الناس عبيد لهم لا حق لهم سوى أن يأكلوا ويشربوا كالدواب؟
أم حسبتم أنه إن أغناكم الله بحفنة من الدراهم والدنانير، أصبحتم تملكون الحق أن تفتفوا حسب مصالحكم ومنافعكم؟ أم حسبتم أن سكنكم في تلك

الديار يعطيكم الحق أن تتلاعبوا بهذا الدين كيفما شئتم ورغبتم؟
إننا نرد عليكم بالقول: إن هذا الدين هو أشرف وأجل وأكبر من أمثالكم وأمثال حكامكم، إن هذا الدين هو أعظم من أن يخاط على مقاس أسيادكم وأولياء نعمتكم، إن هذا الدين هو الدين الحق الذي جاء به محمد بن عبدالله للبشرية كافة، ولا يستطيع بشر أن يحتكره لنفسه، وإذا أردتم أن تتحدثوا عن أنفسكم، فلتكن فتواكم على النحو التالي: (تحريم المظاهرات في السعودية أو في البحرين أو في أي مكان تمثلونه)، وإياكم أن تطلقوا فتاوى تخص غيركم، فنحن نعلم أن الله لا محالة سيخزي في الدنيا من يسخّر الدين في خدمة ميول وشهوات الحاكم، ولا شك أن الله سيحاسب كل على مواقفه يوم القيامة. وأنا شخصياً على استعداد أن أقف أما الله في يوم القيامة ليسأل كل منا عن موقفه هذا، وليكن كل منا مستعد لذاك اللقاء ، فوالله الذي لا إله سواه إني لأراه الآن وكأني فيه. أما في هذه الدنيا فإننا لا نرضى أن يكون الحكم بيننا غير قول الحق:
فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ
آل عمران (61)

ولا شك أنكم ستردون عليّ بالقول كفى هذا الرجل ما يقوم به من شتم وسب وألفاظ بذيئة، وأنتم لا شك أجل من أن تردوا على رجل أخلاقه هذه، فأنتم أهل حكمة وعقلانية (والمحزن أن يقتنع الكثيرون من المغفلين من أبناء المسلمين بحجتكم هذه)، ولكني سأذكركم بآية واحدة في كتاب الله هي التي دفعتني لأشتمكم، واشتم كل من يسلك طريقكم ممن يسمون أنفسهم بعلماء المسلمين، قال تعالى:
لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظُلِمَ ۚ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا
النساء (148)
نعم، هي رخصة من الله أن نجهر بالسوء متى شعرنا بالظلم، وأنا أدعو كل من شعر بالظلم من أبناء المسلمين أن يتمثل قول الحق، وأن يجهر بالسوء، فالله سبحانه قد لعن وشتم من ظلم، قال تعالى:
إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ ۙ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰ أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ ۚ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا النساء (47)

وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا ۖ قَالُوا نَعَمْ ۚ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ الأعراف (44)

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ۚ أُولَٰئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ هود (18)

وعندما تمادى بعضهم في غيّه وظلمه وتسبب بالأذى للمسلمين أنزل الله في حقه قرآناً يتلى فيه أقسى عبارات الشتم والتقريع، قال تعالى:

وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَهِينٍ (10) هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ (11) مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ (12) عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ (13)

القلم 10-13

فلربما ظن هؤلاء الشرذمة والصعاليك ممن يسمون أنفسهم بالعلماء أننا نظلمهم عندما نشتمهم، ولكني أسأل كل من له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد: ألم يظلم هؤلاء الشرذمة من "علماء السلاطين" الآلاف من أبناء المسلمين الذين سالت دمائهم يوم خرجوا يدافعون عن حقوقهم وأعراضهم وأوطانهم في وجه من سرقوهم من أمثال زين العابدين وحسني والقذافي؟ ثم ألم يظلم هؤلاء الشرذمة من العلماء الآلاف الذين ستسيل دمائهم يوم يخرجوا لنفس الغرض ضد كل الطغاة الذين ما كانوا يوماً عبيداً لله كما كانوا عبيداً لكراسيهم التي لن يتنازلوا عنها ولو كلف ذلك أن تجري الدماء أغزر من جريان الأنهار؟ فأي شيء أكبر ظلماً من أن ترموا الناس (بفتواكم) بالنار وهم قد خرجوا ليضحوا بأنفسهم وأبنائهم وأموالهم ليدافعوا عن أنفسهم وعن أبناء جلدتهم الذين آثروا أن يختبئوا وراء فتوى زائفة؟ ألم يخرجوا هؤلاء مضحّين بأرواحهم وشعارهم الأكبر "ليموت من مات عن بينة وليحيي من حي عن بينة"؟

ثم، ألا ترون -يا سادة - ما فعلت وما ستفعل فتواكم تلك بالأمة التي لازال السواد الأعظم من أبناءها لا يعرفون القراءة والكتابة بفضل انجاز قياداتنا

الربانية الملهمة والمؤيدة بتأييد السماء بفضل فتاويكم الجاهزة؟! إننا نشهد النقاش الآن دائر بين أفراد العائلة الواحدة، فأصبح البعض منهم يظنون أن الحق فيما تذهبون إليه، في حين اشتد حنق وسخط الفريق الآخر، وهم المستعدون للتضحية بأنفسهم في سبيل إنقاذ بلادهم، ألا ترون –يا سادة – أن فتواكم هذه قد أشعلت فتنة، لا شك ستستعّر نارها يوم تداهمكم تلك الثورات في عقر داركم؟ وأي شيء أكبر من الفتنة التي وصفها ربنا في كتابه الكريم أنها أكبر من القتل؟ ألم يكن الأولى بكم أن تغلقوا أفواهكم وتسكتوا حناجركم بدلاً من إشعال فتيل فتنة ربما تطحن بالأمة عشرات السنين؟ أما في واقع الحال فإن الخانع الجبان سيتسلح بفتواكم ليهرب وينجو بروحه، ولكن الشجاع المقدام فسيضرب بفتواكم عرض الحائط، وسيقدم الغالي والنفيس ليكسب حريته وحرية أمثالكم الذين يفضلون حياة الرق والعبودية.

والأهم من ذلك كله، ألم تخطبوا علينا قصصاً من سالف الزمان على المنابر (وحتى في فضائياتكم التي تتكسبون منها باسم الدين كما يتكسب أصحاب فضائيات الدعارة باسم الحب والفلانتاين)، أقول ألم تخطبوا فوق رؤوسنا أن أعظم الجهاد في سبيل الله هي كلمة حق عند سلطان جائر؟ وأي جور – أستحلفكم بالله يا سادة- أعظم من جور من يحكموكم ويحكموننا؟ وأي جهاد أعظم من أن تقول لهؤلاء اللصوص أنكم سرقتم مقدرات الأمة وتركتموها في ذيل القافلة بالرغم من المقدرات والثروات الهائلة التي تتوافر في بلاد الإسلام والمسلمين؟ هل أفلحت مليارات الخليج في أن ترفع تصنيفكم من دول العالم الثالث إلى دول العالم الثاني ناهيك أن تكونوا من دول العالم الأول؟ هل مثال ماليزيا وتركيا ليخفى عليكم؟ هل استطعتم أن تجاروا حتى جارتكم وعدوتكم اللدود إيران؟
أم أن ذلك جهاد في الزمن الغابر، أما في زمن حكامكم وأولياء نعمكم يصبح خروجاً على ولي الأمر، لا يعدو أكثر من انتحارا، النار يوم القيامة نصيب من يشارك فيه؟ كم تغنيتم على المنابر وفي الفضائيات بشجاعة النفر الأول من أبناء المسلمين في قول الحق؟ ولكن - يا سادة- هل الشجاعة أن تقف صارخاً في وجه أبي بكر أو عمر أو عثمان كما فعل بعض رعيتهم؟ هل الشجاعة أن ينبري شخص من بين المصلين ليسأل عمر عن ثوبه الطويل؟ هل الشجاعة أن تقف امرأة لترد عمر عن قراره بتثبيت المهور؟ كلا، والله

ليست تلك هي الشجاعة، لأن من يصرخ في وجه عمر يعرف أن عمر لن يظلمه، ولن يرميه في غياهب السجون تحت الأرض عشرات السنين دون محاكمة، ولن ينهال عليه حراس عمر بالعصي والبنادق والدبابات والطائرات وراجمات الصواريخ، ولن يبيد عمر القرية أو المدينة التي خرج منها ذاك المعارض، ولن يقضي على عشيرته التي أنجبته، فعمر يخاف الله ولا يظلم الناس، ولكن الشجاعة (كل الشجاعة) والجهاد الأعظم (الذي قصده النبي صلى الله عليه وسلم) هو أن تصرخ في وجه الحاكم الظالم من أمثال هذه الشرذمة من حكام العرب، لأن من يصرخ في وجههم يعرف أنهم لم ولا ولن يرعوا في مؤمن إلاّ ولا ذمة، وهم لم يتواروا عن قتل الناس في العلن ناهيك عن السر، ومن يصرخ في وجههم يفعل ذلك وهو يعلم أن أكفانه قد خيطت، فلا يفعل ذلك إلا بعد أن يودع أهله وأحبته تاركاً وصيته في فراشه الذي نهض منه في ذاك اليوم، فتلك هي الشجاعة، وتلك هي كلمة الحق، وهؤلاء هم السلاطين الظلمة. نعم إن من يتجرأ ويصرخ في وجه هؤلاء الطغاة هو أكثر شجاعة وأعظم أجراً من الذي صرخ في وجه عمر بن الخطاب، ذلك الدرس الذي أهلكتمونا بكثرة ترداده، فأين هو اليوم من فتواكم؟

لربما لا يحتاج الأمر إلى عظيم دهاء وحنكة ليعرف القاصي والداني أن الغرض من فتواكم تلك هو صد الخطر الشيعي الذي يتهددكم في عقر داركم، فالأمر في البحرين أقلقكم أكثر من التغير الذي حصل في مصر، والخطر أعظم عندما يقوم الشيعة في المنطقة الشرقية من دياركم بمثل تلك المظاهرات التي ستداهمكم في بيوتكم، فذاك بالنسبة لكم خطر عظيم. أليست تلك هي الفزاعة التي تلهبون بها مشاعر المغفلين ممن يستمعون لكم ويظنون صدق نواياكم؟

لا أود أن أجادل في من أضعف العراق ومنح إيران شرق البلاد بأكملها على طبق من ذهب، ولا أريد أن أجادل كيف قلبت فتواكم بين ليلة وضحاها اسم المقاتلين في أفغانستان من مجاهدين تتحقق على أيديهم المعجزات التي لم تكن تحصل إلا في زمن النبوة إلى إرهابيين مفسدين في الأرض، ولا أريد أن أتحدث عن من كان يدعم جون قرنق بكل المال والسلاح لإضعاف الدولة التي فكرت يوماً أن ترفع شعار الإسلام حتى اسميا، ولا أريد أن أتحدث عن من تآمر على الثورة الجزائرية التي خرجت باسم الإسلام، فكل ذلك سيتكفل الزمن بفضحه وتبيانه للبسطاء الذين لا يستطيعون أن يفكروا بأكثر من لقمة

عيشهم، وسيعلم الناس ولو بعد حين من هي العائلة الحاكمة التي تتكسب باسم الدين وتحارب من يحاول حتى أن ينافسها في ذلك الإرث التاريخي الذي جعلوه بفضل فتواكم حقاً خالصاً لا ينازعهم عليه أحد، أقول لن أتحدث عن ذلك كله، ولكني سأخاطب المسلم البسيط (وأقصد هنا أهل السنة على وجه التحديد) بالسؤال التالي: ألا تتضايق عندما تسمع عن سوء معاملة النظام الشيعي في إيران لـ أهل السنة هناك؟ هل يرضيك أن يقع على أهل السنة في إيران السوء والظلم من النظام الشيعي الحاكم هناك؟ الجواب النفي قطعاً، فإن كان كذلك، ألم تقرأ قول الحق:

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا ۚ اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ المائدة (8)

أليس العدل هو أقرب للتقوى؟ هل كرهك لنفر من الناس يدعوك أن تظلمهم؟ لقد كان الأولى بهذه الشرذمة من العلماء أن يدعوا إلى العدل، فذاك من أبجديات من يعتبر نفسه مسلماً، إن صد الخطر الشيعي (كما تصورونه) لا يكون –يا سادة – بمحاولة إيقافه ومحاربته بكل ما أوتيتم من مال وقوة وعلم وجهل، ولكن بالعدل ولا شيء غير العدل، فالعدل أساس الملك، فمتى حصل العدل، أمن الناس على حياتهم وأعراضهم وأموالهم، ولكن متى عمّ الظلم وانتشر، بات الناس في قلق وخوف كالذي أحسستم به ودفعكم لإطلاق فتواكم المشينة تلك.

(المجد والخلود لـ بوعزيزي والخزي والعار لحكام العرب وعلماء السلاطين)

وفي الخاتمة أتوجه إلى عامة المسلمين بالخطاب التالي: ألا ترون أن العلماء قد اختلفوا في أمر هذه الحركات الشعبية؟ ففي حين أن بعض السادة العلماء يرون أن الخروج والمشاركة في هذه الثورات للتخلص من الطواغيت هو فرض عين على كل مسلم ومسلمة ، ولا يعتبر ذلك خروجاً على ولي الأمر (كما يفعل القرضاوي)، يرى فريق آخر من العلماء أن هذا ليس من باب المندوب أو حتى الحسن بل هو الشر بعينه (كما فعل كبار... السعودية)، لأن فيه خروج على أمر الحاكم الملهم المؤيد من السماء، وإثارة للفتنة التي تدعو الحكمة إلى وأدها في مهدها. والحال هذه، ألا ترون

أن العلماء بحاجة إذاً أن يفضوا الخلاف بينهم قبل أن يوقعوا الناس في دنسهم؟ هذا هو –عزيزي القارئ- ما قصدناه وما نقصده على الدوام في مقالاتنا التي تندرج تحت عنوان "والعلماء هم الظالمون"، إنهم من يعرفون الحق ولكنهم إما أن يلبسوا الحق بالباطل أو أنهم يكتمون الحق، وهو بالضبط ما نفهم من النهي الإلهي الذي ورد في قوله تعالى:

وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ

البقرة (42)

والمحزن أن يظن البعض أن ذاك من باب اختلاف الرأي، ويكأن لسان حالهم يقول أنّ في اختلاف العلماء رحمة للأمة. كلا وألف كلا، أقول يا سادة إن هذا الظن هو المهزلة بعينها، وهو الذي قضى على الدين في مهده الأول، وهي الشعار الزائف (بل الأكذوبة) التي تم من خلالها تسويق وتمرير مئات بل الآلاف الأكاذيب على البسطاء من أبناء المسلمين، فحتى يتم لكل من يسمي نفسه عالما تسويق فكره (حتى وإن كان منحرفاً كـ فكري هذا مثلاً) كان لا بد أن يتسلح بهذه الفرضية الخاطئة، ونحن نظن أنها خاطئة لأننا نؤمن أن ليس لله طريقان، فالسبيل إلى الله هي سبيل واحدة، مصداقاً لقوله تعالى:

قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي ۖ وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ

يوسف (108)

فابحث – رحمك الله- عن تلك السبيل، ولا توقع نفسك في شرك هؤلاء الذين يسمون أنفسهم بالعلماء، وما هم بأكثر من مرتزقة، يميلون حيث يميل هوى السلطان فينفذون له نزعاته وشهواته تحت غطاء الدين.

بقلم: د.

رشيد الجراح

(والعلماء هم الظالمون (3

هذه المقالة هي الثالثة في سلسة من المقالات التي تندرج تحت عنوان "والعلماء هم الظالمون"، أي أنهم من يعرفون الحق ولكنهم إما أن يلبسوا الحق بالباطل، أو أنهم يكتمون الحق، وهو بالضبط ما نفهم من النهي الإلهي الذي ورد في قوله تعالى:

وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ البقرة (42)

وكان جلّ الاهتمام ينصبّ على أهمية الفتوى الدينية في توجيه مسيرة حياة الناس إلى جادة الصواب، وهي حق العامة على الخاصة، والعلماء لا شك هم من يتحمل تبعات الفتوى التي يسوّقونها للعامة على أنها مشتقة من أصول الدين. وقد خلصنا في مقالاتنا السابقة من الأمثلة التي قدّمناها أن المشكلة تكمن في الفتاوى المتضاربة التي غالباً ما تبهم ولا تجلّي الحقيقة، فيبيت حتى الحليم حيرانا، وقد خلصنا في نهاية مقالتنا السابقة إلى القول أنه من الخطأ –حسب رأينا- أن يظن البعض أن في عدم خروج العلماء بفتوى موحدة تبيّن للناس الحق من الباطل ربما يقع في باب اختلاف الرأي، ويكأن لسان حالهم يقول أنّ في اختلاف العلماء رحمة للأمة. ولقد رفضنا جملة وتفصيلاً مثل هذا الظن، وزعمنا أن هذا الاختلاف كان ولا زال من أهم الأسباب التي أبعدت الناس عن قبول الدين في حياتهم العملية، وقد كان هذا الشعار على الدوام هو الشعار الزائف (بل الأكذوبة) التي تم من خلالها تسويق وتمرير مئات (بل الآلاف) الأكاذيب على البسطاء من أبناء المسلمين، فحتى يتم لكل من يسمي نفسه عالما تسويق فكره (حتى وإن كان منحرفاً كـ فكري هذا مثلاً) كان لا بد أن يتسلح بهذه الفرضية الخاطئة، ونحن نظن أنها خاطئة لأننا نؤمن أن ليس لله طريقان، فالسبيل إلى الله هي سبيل واحدة، مصداقاً لقوله تعالى:

قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي ۖ وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ
يوسف (108)

وقد دعونا القارئ في مقالاتنا السابقة إلى البحث عن السبيل الحقيقية، لكي لا توقع نفسك في شرك الذين يسمّون أنفسهم بالعلماء وما هم بأكثر من مرتزقة، يميلون حيث يميل هوى السلطان، فينفّذون له نزعاته وشهواته تحت غطاء الدين. وفي مقالتنا هذه سنحاول تقديم أمثلة جديدة لنبيّن أهمية الفتوى الصحيحة التي تعيد الأمة بأكملها إلى جادة الصواب، والأمثلة هي:

1. الانضمام إلى الأحزاب
2. جواز السفر
3. الحج والعمرة
4. انضمام الأردن إلى مجلس التعاون الخليجي

ولكن قبل الخوض في مناقشة هذه القضايا، فإنني أعيد التأكيد على القارئ الكريم أن لا يقتنع بمثل هذه الهراء الذي نزعم، ونحن لا نطلب منه عدم الاقتناع بها فقط، لا بل نطالبه في الوقت ذاته أن يحاول إيجاد الهفوات والزلات لكي لا تكون حجة عليه إن طابق هواه ما جاء فيها، فهذه فتاوى لا تلزم سوى صاحبها (وقليل ممن ظنّ أنّ فيها شيئاً من الحق).

1. الانضمام إلى الأحزاب

لقد شغل هذا الموضوع حيّزاً كبيراً في الحياة السياسية المعاصرة، وأخذ من النقاش ما لا يمكن تلخيصه أو حتى الوقوف على محطاته الرئيسية، ولمّا كان ما يعنينا هو شرعية مثل هذا الأمر كان الهدف هو تمحيصه من خلال الفتوى الدينية، فالسؤال المشروع الذي يجد الإنسان المسلم أنّ من حقه معرفته هو: هل يجيز الدين الانضمام إلى الأحزاب السياسية أو السياسية الدينية؟

ولمّا أصبحت كثير من الأحزاب السياسية تكتسب صبغة دينية، أصبح من البديهي الاعتقاد بشرعيتها، فها هم أهل الدين (وتجاره) يشكلون الأحزاب السياسية الدينية التي تتراوح بين أقصى اليمين (التطرف) وأقصى الشمال (الاعتدال) – (وبالمناسبة أنا لا أعرف لم توصف أحزاب اليمين بالتشدد والتطرف بينما توصف أحزاب اليسار بالاعتدال، فأنا أستخدم المصطلحات كما أسمعها من الإعلام حتى وإن لم أكن أفهمها، ربما لكي أظهر أني على

درجة من الثقافة والمعرفة (حتى وإن كنت في واقع الحال لست أكثر من طبل أجوف أردد بصوت عال ما يدق عليه).
نعود إلى صلب الموضوع بالقول: هل التحزب أو الانضمام إلى الأحزاب أمر مباح في الشرع؟ ما يعنيني هو ليس تقديم فتوى ترشد الناس إلى جادة الصواب (لأنني ببساطة لست أهلاً لذلك)، وإنما جلّ اهتمامي هو وصف واقع الحال كما يمثّله علماء الإسلام والمسلمين، وندع لكل مسلم أن يتخذ السبيل الذي يظن أنها الحق.

أما بعد:
فجميعنا يعرف أنّ علماء المسلمين قد انقسموا إلى فسطاطين متضادين في هذا الموضوع: ففي حين أن بعضهم يبيح الأمر لا بل ويشجّع عليه، يجد آخرون أنّ التحزب مخالفة واضحة للشرع، وهنا يقع العامة (من مثلي) في حيص بيص، إلى من ينتمي: إلى من يبيح التحزب أم إلى من يحرّمه؟ والحالة هذه، فإننا نعيد السؤال نفسه الذي كررناه على الدوام في سلسة مقالاتنا هذه: أين يا ترى تكمن الحقيقة؟ هل هذا هو فعلاً ديننا؟ هل أصبح من المتعذر أن نجد في شريعتنا ما يهدينا إلى جادة الصواب ويجمع شمل الأمة على كلمة سواء؟
نحن على يقين أن السواد الأعظم من عامة أبناء المسلمين هم طلاب حقيقة، فهم على استعداد كامل أن يميلوا حيث تميل الحقيقة، ولكن -يا ترى- أين هي؟ هل هي مع الفريق أ أم مع الفريق ب؟ ثم، كيف لي أن أميّز؟
إننا نظن أن المسئول عن هذا التشرذم وهذه الحيرة هم العلماء الذين غالباً ما قسّموا الناس إلى طوائف وفرق بسبب زيف فتواهم. فنحن نظن أنه لو كانت النيّة خالصة لله، باحثة عن الحقيقة المطلقة، مجردة عن الرغبات والأجندة الخفية، لتوصلنا إلى الفتوى الصحيحة التي تسير بالأمة إلى بر الأمان. ولكن لمّا كان الهدف هو البحث عن أدلة تؤيد رأيي وموقف فرقتي وطائفتي، كان التذرع بالحجج الواهية الجانبية تقدم على أولويات الأمة بأكملها، فهمّ علماء طائفة معينة غالباً ما يقدّم على همّ الأمة جمعاء، ومصلحة شرذمة من الناس تسبق مصلحة الأمة كلها، لا لشيء وإنما لظنهم أنهم هم الفئة الناجية.
وسنبدأ من الحديث النبوي الذي غالباً ما يردده علماء المسلمين عن النبوءة في انقسام الأمة إلى بضع وسبعين شعبة كلها هالكة إلاّ واحدة، ففحوى

الحديث النبوي هو:

انقسمت اليهود.....وانقسمت النصارى.....وستنقسم أمتي.....

فمن هم الفئة التي كان عليها محمد وصحبه؟

الجواب: كل فرقة وكل حزب من أحزاب الأمة يظنون أنهم هم تلك الفئة، أليس كذلك؟

ولكن -يا ترى- أين أنا وأنت منها؟ فأنا لا أنتمي لأي منها؟ هل يعني ذلك أني هالك لا محالة؟

رب، رب، رب.... أين أذهب؟ ,إلى من أنتسب؟

لا شك أنك ذاهب إلى جهنم وبئس المصير سيرد أهل السنة ما دمت أنك لست منا، وهكذا سيرد أهل التشيع ما دمت أنني لست منهم، وهكذا سيرد أهل التصوّف ..... وأهل.... وأهل.... .

لذا، دعني أصدق بعضكم وأنضمّ أليهم لأنجو، فها أنا أنضمّ لأهل السنّة مثلاً لأنها الكتلة الأكبر بين التكتلات الإسلامية، ولكن لا زال هناك مشكلة: إلى أي من فرق وأحزاب أهل السنّة سأتبع؟ هل كلها على حق؟ هل يسامحني الإخوان المسلمون لو أنني كنت تحريرياً؟ وهل سيغفر لي التحريريون لو كنت سلفياً؟ وهل سيظن بي السلفيون خيراً لو كنت سلفياً جهادياً؟ وهل سيأخذني الصوفيون في رحلتهم إلى الجنة لو لم أحضر في حياتي ندوة من أيام سمرهم الربانية؟!

إنّ هذا التوصيف لا ينطبق فقط على أهل السنّة، وإنما ينطبق كذلك على أهل التشيع، فإلى أي فرقة وإلى أي حزب شيعي يجب أن أنتمي لكي ينتهي بي المطاف إلى جنات الخلد؟ ومن هم الذين يملكون مفتاح الجنة ويخفونه عن غيرهم؟ سيرد الجميع قائلاً (وإن لم ينطقها صراحة): لا شك أنا هو من تبحث عنه. فنحن نتحدى أن يظن أي من هذه الفرق والأحزاب أنه على خطأ، فمن الخطأ أن يظن البعض أن الفريق الآخر يعتقد أنه متمسكاً بفرقته وبحزبه مخطئاً، فلا شك أن كل فريق وكل حزب يظن أنه الفرقة الناجية؟

فأين -يا ترى- تكمن الحقيقة؟

فعلى أقل تقدير، أنا لا أعرف، ولو كنت أعرف لما تأخرت لحظة واحدة عن اللحاق بذاك الركب، ومن يظن أنه يعرف أسأله الله أن يدلّني.

فغالباً ما سوّق أهل العلم مبدأ الحاجة إلى التمسك بالمذهب والطائفة، ووصل الأمر أن ناصب بعضهم العداء بعضا، فها هو عالم جليل وقور ذو عمامة

بيضاء يخرج على فضائيات المسلمين ليقول أن اليهود أقل خطراً على الإسلام من أهل التشيع، وها هو ذو عمامة سوداء يخرج على فضائيات الإسلام والمسلمين فلا يتردد في القول أن الجنّة لا يدخلها إلا من اتخذ علياً وليّا. وها هم من يسمّون بالمعتدلين يكفرون الجهاديين، وها هم الجهاديون لا يرون في المعتدلين إلاّ متخاذلين منافقين متخلفين عن الجهاد كالذين تخلفوا عن اللحاق بالنبي في تبوك. فأين -يا ترى- تكمن الحقيقة؟ ومن أوصل الناس إلى هذا المأزق؟ إنهم العلماء ولا أحد غير العلماء الذين فرّقوا الأمة، ولم يجمعوا شملها على كلمة سواء.

الدليل

لقد وجّه الله المسلمين أن يبسطوا أيديهم لليهود والنصارى إلى كلمة سواء، قال تعالى:

قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ ۚ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ آل عمران (64)

فإذا كانت هذه الدعوة موجّهة لغير المسلمين، ألم يكن الأولى أن يوجه علماء المسلمين مثل هذه الدعوة إلى أبناء المسلمين على كافة فرقهم وأحزابهم؟ لم لا نلبي دعوة الله فنعود جميعاً إلى كلمة سواء بيننا؟ الجواب كلا، لأن الله قد حسم الأمر في قوله تعالى:

فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا ۖ كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ المؤمنون (53)

وكانت النتيجة المرعبة تتمثل في قول الحق تعالى:

مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (31) مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا ۖ كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ (32) الروم

أليست تلك إذاً هي حال المسلمين؟ ألم نصبح كالمشركين الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً كل حزب بما لديهم فرحون؟ أليس في هذا نهي من الله أن نفرّق ديننا، لا لشيء وإنما لظننا أننا نحن على صواب وغيرنا على خطأ؟

إنني أتحدى أن ينبري من علماء الفرق من يقول أن حزبي أو فرقتي على خطأ، أو أن يحاول إيجاد الخلل في ما يتبنى من أفكار وأطروحات.

لقد كان ظن كثير من علماء المسلمين أن في التحزب توحيد للصف، وطريق

لتوحيد الجهود التي يمكن أن تكون عامل ضغط في طريق توجيه المسيرة، فغالباً ما ظن الكثيرون أن اليد الواحدة لا تصفق، ولا بد من تكاتف الأيدي مع بعضها لإحداث التغير، فظنوا أن التحزب هو الطريق إلى ذلك، ولكن ها هي الثورات العربية الحديثة التي بدأت تؤتي أكلها في بداية عام 2011 تثبت لنا بما لا يدع مجالاً للشك بطلان وزيف وكذب دعواهم تلك، فلقد ظن أهل السياسية وكثير من أهل الدين أن الأحزاب هي طريق وسبيل التغيير، ولكننا نرى أن التغيير الذي حصل بسبب تلك الثورات كان ينأ بنفسه عن الأحزاب والتحزب، لا بل فقد كانت الأحزاب عبئاً على تلك الثورات، وكان من أهم أهداف ووسائل الثائرين أن يثبتوا للأنظمة الحاكمة (وللعالم أجمع) أن تلك الثورات لم تكن من صنيعة الأحزاب، وإنما هي ثورات شعبية حقيقية قام بها من ليس لهم صلة بالأحزاب من قريب أو بعيد، وحاولت الأحزاب أن تنأ بنفسها عن تلك الثورات لكي تتيح لها فرصة النجاح، وبكلمات بسيطة لقد أصبحت الأحزاب (التي كان يظن أنها أداة تغيير) عبئاً على التغيير.
وحاولت الأنظمة الحاكمة التي تحاول إجهاض تلك الثورات إلصاق التهم بها، وما كان أفضل من تهمة التحزب ليتسلحوا بها ضد كل من ثار ضدهم.
فأين يا ترى فائدة تلك الأحزاب؟
وأنا على يقين بأن ألد أعداء تلك الثورات في المستقبل هي الأحزاب نفسها، فنحن نتنبأ أن فشل تلك الثورات ستكون على يد الأحزاب التي ستحاول ركوب الموج بعد نجاح تلك الثورات، لتحاول تسخيرها لمصلحتها، وعندها سينشب الصراع بين تلك الأحزاب، الصراع الذي سيزيد في تفتيت الأمة، ونحن نتنبأ أن الصراع الأكبر سيكون بين الأحزاب التي تتخذ طابعاً دينيا مع الأحزاب ذات الصبغة العلمانية، فسيرفض كل طرف منهم أطروحات وبرامج الطرف الآخر، وسيمتد الصراع بعد ذاك إلى داخل الفريق الواحد، فستتنافس الأحزاب مع بعضها البعض، ولكن المحزن في الأمر أن الذين لا يجيدون اللعبة سيدخلون الملعب بكل عشوائية وفوضى، ولا أخال أن العقل المسلم يستطيع أن يتقن لعبة الأحزاب والتحزب والتي هي في الأساس صنيعة الفكر الغربي الذي رضي أن يضع الدين على الرف في لعبة السياسة.
ثم، ألا ترى بأن انضمامك إلى حزب ما (بغض النظر عن ماهيته وتوجهاته) ستدفع بالآخرين لتشكيل أحزاب منافسة لك؟ فهل تظن أن الآخرين سيرون أنك تتحزب ويقفون صامتين؟ فهل تعتقد أن أهل السنة في العراق مثلاً سيقفون مكتفي الأيدي إن ظهرت التكتلات الشيعية؟ وهل ستظن أن أهل

الشيعة سيبقون صامتين أمام الأحزاب السنّيّة المنادية إلى الوقوف صفاً لمواجهة خطر الفرق الأخرى؟

جواز السفر

لقد برز جواز السفر في القرن العشرين كوثيقة عالمية تتيح التنقل بين الكينونات السياسية، وأخذت كل دولة تصدر جواز السفر لرعاياها الراغبين بالتنقل من دولة إلى أخرى، وأصبح جواز السفر هو الوثيقة الرسمية التي تثبت للشخص حق مواطنته في أي دولة من دول العالم، فمن يحمل جواز السفر الأردني فهو مواطن أردني يتمتع بكامل حقوق وواجبات المواطنة لهذا البلد، ومن حمل جواز السفر الفرنسي، فهو بلا شك ملتزم لتلك الدولة بالمواطنة، وهكذا.

وقد سمحت قوانين بعض الكينونات السياسية بازدواج الجنسية ومنعتها كينونات أخرى، فمن يحمل جواز السفر الأمريكي مثلاً يستطيع أن يحمل غيره، ولكن لا يستطيع من كان نمساوياً حسب جواز سفره أن يكون مصرياً في الوقت ذاته، وهكذا

ولمّا كانت بلاد الإسلام والمسلمين كيانات سياسية متعددة أصدرت كل دولة من تلك الدول جواز سفر خاص بها، فالعراقي يحمل جواز سفر عراقي، والمغربي يحمل جواز سفر المغرب، والقطري يحمل جواز سفر قطري، وهكذا، وغالباً ما منعت كثير من هذه الدول ازدواج الجنسية بين بعضها البعض.

وفي خضم هذا التنوع الكبير برزت مشكلة خاصة بمجموعة من الناس وهم الفلسطينيون، الذين لم تتولد لهم إلى هذه اللحظة دولة خاصة بهم تصدر لهم وثيقة تسمى بجواز السفر الفلسطيني، وهنا أخذ الفلسطينيون الذين شرّدوا من ديارهم إلى البلدان الأخرى البحث عن تلك الهوية المتمثلة بتلك الوثيقة التي تسمى جواز السفر. وكان الهدف على الدوام هو البحث عن مخرج لهم يسهّل عليهم عملية التنقل بين الدول، فمن غير الممكن الدخول والخروج من وإلى كينونات سياسية مختلفة (أو ما يسمى بالدول) دون تلك الوثيقة، فبرزت الحاجة ملحّة أن يبحث فلسطينيو الشتات عن وثيقة تمكنهم من الانتقال بين البلدان المختلفة، فحاول كل منهم الحصول على جواز سفر الدولة التي استقر به الأمر فيها. فمن يسكن منهم في الأردن حصل على

الجواز الأردني ومن سكن منهم في لبنان حصل على الجواز اللبناني ومن ذهب إلى الأرجنتين حصل على جواز سفر تلك الدولة، ولكن الأمر لم يكن على الدوام بتلك السهولة، ولم تحل مشكلة جميع الفلسطينيين الذين وجدوا أنفسهم خارج حدود فلسطين، فلا زال الكثيرون منهم لا يحملون ذلك الجواز، وكثير منهم يحمل وثيقة مؤقتة، وهكذا.

السؤال: هل يجوز شرعاً للفلسطيني الحصول على جواز سفر الدولة التي استقر بها؟

الجواب: لا.

لقد كانت حجة الفلسطينيين الكبرى ضد اليهود الذين احتلوا أرضهم واستولوا عليها بالقوة هي أن أولئك اليهود هم مواطنون جاءوا من دول أخرى ويحملون جنسيات تلك الدول متمثلة بجوازات سفرهم، فمنهم الروسي والبولندي والألماني والفرنسي والأمريكي والعراقي والإيراني واليمني والسوري وغيرهم، قدموا إلى تلك الأرض واحتلوها بالقوة، وأخرجوا أصحاب الأرض من ديارهم، وها هم اليهود يماطلون في المفاوضات وخاصة فيما يتعلق بحق العودة –على ما أظن- إلى اليوم الذي لا يبقى فيه فلسطيني واحد ممن هجّر من أرضه على قيد الحياة، ويكون كل فلسطيني على وجه المعمورة قد ولد على تراب دولة أخرى ويحمل جواز سفرها، عندها سينبري اليهود للقول للعالم أن هؤلاء الفلسطينيين هم مواطنون أردنيون وسوريون ولبنانيون وكويتيون وأرجنتينيون وألمان وفرنسيين وكنديين، ...الخ، ونحن هذا الجيل من اليهود من ولد على تراب هذه الأرض ومن يحمل جواز سفرها، فأي يحق يدعيه هذا الفلسطيني الذي لم يعش يوماً واحدا على تراب هذه الأرض؟ عندها ستتساوى حجة الطرفين، ليعود كل منهم إلا حجة الإرث التاريخي، وعندها ستكون حجة اليهود أقوى من حجة الفلسطينيين ما داموا أنهم (أي الفلسطينيون) لم يولدوا على تراب تلك الأرض ومادام أنهم يحملون جوازات سفر بلدان أخرى.

إن نقطة القوة التي كانت تدافع عن الحق الفلسطيني ستنقلب مع مرور الزمن إلى نقطة ضعف لهم ونقطة قوة لعدوهم الذي اغتصب أرضهم، لقد كان الأولى بكل فلسطيني يعيش في أي مكان على وجه المعمورة أن لا يرضى بجواز سفر غير جواز السفر الفلسطيني، إن في قبوله لجواز سفر إي دولة أخرى إهدار لحقه في مواطنته الفلسطينية.

وقد يرد البعض بالقول على الفور: لقد كان الفلسطينيون بحاجة إلى جواز سفر للتنقل، فذاك مما أملته الظروف وواقع الحال، فنقول لا ريب في ذلك، ولكن كان الأجدر بجامعة الدول العربية، والأجدر بالحكومات العربية، والأجدر بمن فرض نفسه ممثلاً شرعياً ووحيداً للشعب الفلسطيني أن يدرك الحاجة إلى إصدار وثيقة خاصة بالشعب الفلسطيني تبيّن هويته وانتماءه، وعندها لن يستطيع العالم بأكمله أن يمنع شعباً كاملاً من التنقل، ولكنه سيقبل بتلك الوثيقة كواقع حال. وستبقى القضية الفلسطينية والمواطنة الفلسطينية على وجه التحديد حيّة غير قابلة للمساومة، ولكن لما قبل الكثير الكثير من أبناء الشعب الفلسطيني هوية وجنسية غير جنسيته الفلسطينية، سيطلب منه العالم بعد ذلك تحمل تبعات هذا الخيار، ولا أظن أن أي مفاوضات للسلام -كما يزعموا- ستفضي إلى حق العودة لمن يحمل جنسية غير الجنسية الفلسطينية، ويستطيع المفاوض اليهودي والأمريكي والغربي القيام بذلك بكل سهولة ويسر على النحو التالي: القبول بالدولة الفلسطينية التي لا تسمح قوانينها ودستورها بحق ازدواج الجنسية، ولو راقبنا ما يعمل الكيان الصهيوني لوجدنا أن ذلك واضح في أجندته، فهو يحاول بكل الوسائل وشتى الطرق إصدار التشريعات التي تتيح نزع الجنسية عن العدد الأكبر من الفلسطينيين، لتكون تلك نقطة مساومة مع الطرف الآخر.

فأنت كفلسطيني لا يحق لك أن تحوز كل شيء مرة واحدة، فسيأتي اليوم الذي ترى فيه كيف أن حيازتك على هوية غيرك قد أضاعت حقك (وربما حق أبناءك من بعدك) في فلسطينيتك، ألم يكن الأجدر بك أن تتمسك بهويتك بدلاً من المطالبة بهوية غيرك؟ وما دمت أنك قد قبلت أنت بهوية غيرك، فهل تعتقد أن أبناءك سيتنازلون عن هويتهم الجديدة؟ وهل سيقبل العالم بعد ذلك أن تجتمع كل تلك الهويات على أرض فلسطين مرة أخرى كما فعل مع اليهود من ذي قبل؟!

ولكن يبقى هناك سؤال آخر يخص المسلمين بشكل عام وليس فقط الفلسطينيين الذين هجّروا من أوطانهم، والسؤال هو: هل يجوز للمسلم استخدام جواز السفر في التنقل من بلد إلى آخر؟

إننا نظن أن الجواب هو: نعم ولا

لذا يجب تفصيل السؤال بشكل أكثر دقة على النحو التالي:

هل يجوز للمسلم استخدام جواز السفر للتنقل بين الدول العربية الإسلامية؟

الجواب: لا
هل يجوز للمسلم استخدام جواز السفر للتنقل بين الدولة المسلمة والدولة غير المسلمة؟
الجواب: نعم

إننا نظن أن الجواب على السؤال الأول (هل يجوز للمسلم استخدام جواز السفر للتنقل بين الدول الإسلامية؟) هو النفي قطعاً. إننا نؤمن إيمانا راسخاً أن التنقل بين الدول العربية والإسلامية باستخدام وثيقة جواز السفر أمر لا يقبله الشرع، وفي هذا كلام غاية في الغرابة والخطورة، لما يترتّب عليه من عواقب قد تصل إلى درجة الكارثية في بعض الأحيان. ولكن قبل التسرع للحكم على مثل هذا الزعم، فإننا نطلب منحنا فسحة من الوقت لتبيان الأصل العقائدي لمثل هذا الظن.

أما بعد:
لعل الجميع يدرك أن للشريعة مقاصد، وقد أفرد العلماء فصولاً في مؤلفاتهم وفي فقههم لموضوع مقاصد الشريعة، وبكلمات بسيطة جداً فإن هذا الفرع من العلم الشرعي يبحث في ماهية التحليل والتحريم: لم يحرم هذا ويحلّ ذاك، وتبيان أثر ذلك على حياة المسلم أولاً، وحياة الناس كافة من بعد ذلك. وللعامة حق ودين في أعناق العلماء أن يبينوا لهم مقاصد الشرع فيما حرم عليهم وأحل لهم، فإن أنت تحدثت عن تعدد الزوجات كان لزاماً أن يفهم الناس مقاصد الشريعة في ذلك، وإن أنت تحدثت عن ما يؤكل وما لا يؤكل كان لزاماً أن يفهم الناس الغاية والهدف من وراء ذلك، وهكذا.
والخوف كل الخوف أن كثيراً من الناس ظن أن الحلال والحرام يكمن فقط في العبادات وطريقة تأديتها وفي المعاملات البسيطة، ونسوا أن هذا الدين هو منهج حياة, وحتمية أن يعرض كل أمر في حياة المسلم على الدين، فإن أجازه الدين فله ذلك، وإن منعه فعليه أن يحذر منه ويبتعد عنه، فالحرام والحلال لا يقتصر على أحكام الحيض والنفاس والمسح على الخفين فقط, ولكنه يخص أمور المسلمين جميعاً دون استثناء، وإن صحّ هذا الزعم، فلا ضير إذاً أن نطرح أسئلة مثل:
ما رأي الدين في إصدار وثيقة تسمى بجواز السفر؟
الجواب: لا ضير في ذلك

ثم، هل نستخدم جواز السفر للتنقل بين دول الإسلامية وغير الإسلامية؟
الجواب: نعم
لكن، هل يجوز استخدام جواز السفر للتنقل بين الدول الإسلامية؟
الجواب: لا
ولكن لماذا؟
الرأي: ما دام أن جواز السفر هو وثيقة للتنقل بين الدول، فإن ذلك مما ينظم حياة الناس، ويسهل عليهم، ويضبط حركة الانتقال لتكون سلسة مرنة، ينتج عنها المصلحة للبشرية جمعاء، فبغير تلك الوثيقة ربما تعم الفوضى ويكثر الخراب، وتصعب حياة الناس، لذا فمقصد الشريعة واضح لا لبس فيه، أليس كذلك؟
- ولكن لما لا يجوز استخدام جواز السفر في التنقل بين الدول الإسلامية؟ ألا ينظم ذلك حركة الانتقال ويسهل حياة الناس؟
- بلى، هو كذلك،
- إذاً، أين تكمن المشكلة؟
إننا نعتقد أنه في الوقت الذي ينظم استخدام جواز السفر حركة الناس بين الدول العربية والإسلامية ويضبطها ويحقق مقصد من مقاصد الشريعة ألاّ أنه يحدث ضرراً أكبر من ذلك بكثير، ولا شك أنّ القاعدة الشرعية التي أختطها العلماء منهجاً في فتواهم تتلخص بالمقولة التالية:
در المفاسد أولى من جلب المصالح
وبكلمات بسيطة فإننا نزعم القول أنه إذا كان استخدام جواز السفر بين الدول الإسلامية يحقق مصلحة، فهو في الوقت ذاته يجلب مفسدة أكبر من المصلحة التي يحققها.
- ولكن كيف؟
لعل الجميع يجزم أن حيازتك جواز السفر الأردني أو السوري أو اللبناني أو المصري يعني أنك تنتمي إلى ذاك الكيان السياسي، وتقبل به كواقع حال، أليس كذلك؟
فأنت عندما تسافر من مصر إلى أمريكا مثلاً فأنت – بلا شك- بحاجة أن تستخدم جواز سفرك المصري، وعندما تدخل حدود تلك الدولة الأجنبية يقوم الموظف المسئول على الحدود في تلك الدولة بختم جواز سفرك بالختم الأمريكي، لتقر بأنك قد دخلت كياناً سياسياً جديداً، أليس كذلك؟
إذاً فأنت بهذه الطريقة تقبل أن تتعامل مع الدولة المضيفة لك ككيان سياسي

يتمتع بمواصفات الدولة، التي يجب الاعتراف بها والتعامل معها على تلك الشاكلة.

والآن لنتخيل نفس الموقف بين الدول العربية والإسلامية على النحو التالي: فلو كنت تحمل جواز السفر المصري ودخلت الحدود الأردنية، ألا يقوم موظف الحدود الأردني بختم جواز سفرك المصري بالختم الأردني كما فعل موظف الحدود الأمريكي من ذي قبل؟ إذاً أنت (كحامل لجواز السفر المصري) تتعامل مع الكيان الأردني كتعاملك مع الكيان الأمريكي، وقبولك بالختم الأردني يعني اعترافك بهذا الكيان السياسي كدولة تتمتع بمواصفات الدولة التي يجب الاعتراف بها والتعامل معها على تلك الشاكلة، أليس كذلك؟

والحالة هذه، دعني أسأل من يقبل بالفكر الإسلامي كدستور حياة سؤالاً واحداً فقط وهو: هل فعلاً تعترف بالأردن كدولة تتمتع بكامل مواصفات الدولة التي يجب الاعتراف بها والتعامل معها على تلك الشاكلة؟ هل تقر بأن الدولة الأردنية هي دولة مستقلة يجب أن تعاملك كما يعملك الأمريكان أو الأوربيون أو الصينيون أو الهنود؟ وهذا السؤال يطرح بخصوص جميع الكيانات السياسية من شرق العالم الإسلامي إلى غربه، هل فعلاً تشكل هذه الحارات والمزارع التي اقتطعتها عائلات حاكمة وأورثتها لأبنائها، وثبّتت حدودها اتفاقيات سيكس بيكو ومعاهدات سان لوران ووعود بلفور وغيره كدول ذات سيادة واستقلال؟

إن في قبولك أن يختم جواز سفرك بالختم الأردني أو اللبناني أو العراقي أو اليمني أو البحريني أو السعودي، الخ. هو إقرار منك باستقلالية تلك الكيانات السياسية؟

لذا فإنني أدعو علماء المسلمين جميعاً للإجابة على سؤال واحد وهو: هل تضفون الشرعية الدينية على هذه الكيانات السياسية؟ هل تقر كمسلم باستقلالية هذه الدول كل على حدوده التي رسمت له؟ هل تقر بالتقسيم السياسي لبلاد الإسلام كما هو عليه الآن؟

والآن لنتخيل ما كانت ستعمل فتوى شرعية مثل هذه بحال وواقع الأمة الإسلامية السياسي، إن أقل ما كان لمثل هذه الفتاوى أن تحدث في العالم الإسلامي هو إيصال رسالة إلى هذه العائلات والأنظمة الحاكمة التي نهبت البلاد وأذلت العباد أننا كمسلمين –وإن كنا مجبرين أن نتعامل مع ظرف واقع فإننا في الوقت ذاته- لا نؤمن به ولا نقره في شرعنا، وقد كان بإمكان

أبناء المسلمين تطبيق ذاك بكل يسر وسهوله، فمن أراد من أبناء الثراء الذهاب في النزهات والرحلات فلا يحتاج إلى جبال لبنان وخضراء تونس وحسناوات الشام والمغرب، فهناك البديل في اليونان وقبرص ورومانيا وروسيا، ومن أراد من أصحاب العلم والاختصاص حضور المؤتمرات العلمية، فلا حاجة له بالأردن والعراق ومصر، فهناك الكثير منها في بريطانيا وكندا وأمريكيا، ومن أراد التجارة فلا حاجة له بدبي والدوحة، فهناك الفرص الأكبر في بانكوك وبكين وسيؤول، وليفهم المحتل الأجنبي والغاصب المحلي أن هذه الأرض ليست مزرعة أبيه يدخل فيها من يشاء ويحرمها على من يشاء.
ولعلنا نزعم أن لمثل هذه الفتوى تبعاتها التي ربما تصل إلى درجة الكارثية منها مثل أحكام تتعلق بالعمرة والحج والجهاد وسنتناولها بالتفصيل واحدة بعد الأخرى.

رحلة العمرة والحج
إذا كانت عقيدة السادة العلماء أصحاب الفكر الديني الإسلامي تتمثل في الظن أن بلاد الإسلام هي بلاد واحدة كما تغنوا بذلك صباح مساء على كل منبر للخطابة وعلى كل شاشة في فضاء هذا الكون الفسيح، وأن التقسيم الحاصل على أرض الواقع هو صنيعة غربية بامتياز لا يجب أن نقر بها، فإنني أظن أن من أبسط تبعات هذا الظن هو أن الله قد أسقط عني فريضة الحج والعمرة والجهاد.
- ولكن كيف؟
أما بالنسبة للعمرة، فغالباً ما دعاني أصحابي إلى الذهاب معهم في رحلة عمرة إلى بيت الله الحرام، وألحّ عليّ الأهل في ذلك، وأنكروا عليّ موقفي الثابت منذ سنين بأني لا أنوي العمرة إطلاقا، وظنوا أنما اسقط بهذا الفعل سنّة من سنن النبي محمد صلى الله عليه وسلم.
وفي الوقت الذي لا أحاول الدفاع عن موقفي معهم، ولا أحاول أن أثنيهم عن عملهم (لاحتمال خطأ ظني وصدق فعلهم)، إلاّ أنني لم أستطع الاقتناع بصحة القيام بأداء سنة العمرة كلما حاولت إقناع نفسي بذلك. أما السبب الذي دائماً ما كان يثنيني عن القيام بمثل هذا العمل الديني (مع توافر القدرة المادية والجسمية لدي) يتمثل في أنني إذا ما ذهبت في رحلة العمرة فإنني سأضطر للوقوف على الحدود الأردنية السعودية أو في واحدة من المطارات

السعودية، وسيطلب مني الموظف المسئول إبراز جواز سفري (الذي استخدمه في الترحال بين الكينونات السياسية المستقلة) ليختمه بالختم السعودي، وعندها سيكون ذلك بمثابة إقرار مني باستقلالية تلك المنطقة الجغرافية تحت المسمى المتعارف عليه بين الناس بالمملكة العربية السعودية. وما دمت أنني أظن أن من واجبي الديني هو عدم الاعتراف بذاك الكيان (ولا بغيره من الكيانات الأخرى من بلاد الإسلام والمسلمين وعلى رأسهم البلد الذي أنتمي إليه وهو الأردن) كدولة مستقلة، فإنني عندها سأرفض أن يدمغ جواز سفري بذاك الختم السعودي، وعندها لا أظن أنهم سيخلّون سبيلي إلى العمرة. وهنا سأقع في هذا المفترق: أيهما أولى الالتزام به: أداء مناسك العمرة وقبول الاعتراف بالدولة السعودية أم الكف عن أداء مناسك العمرة وعدم الاعتراف بالدولة السعودية؟

- أما أنا فقد اخترت الطريق الثانية ما دام أن العمرة ليست فرضاً على المسلم!!!

رحلة الحج

- **ولكن ماذا بالنسبة لرحلة الحج؟ أليس الحج فرض وركن من أركان الدين؟**
- **أيهما أولى القيام بالحج مع الاعتراف بالدولة السعودية أم الكف عن الحج مع عدم الاعتراف بالدولة السعودية؟**

الجواب: لا زال أمامي متسع من الوقت لاتخاذ القرار، فانا لازلت في العقد الرابع من العمر، ولست ملزماً بالحج – كمواطن أحمل جواز السفر الأردني- إلا بعد انقضاء النصف الأول من العقد السادس من العمر على أقل تقدير. فالحج في الأردن (على غير ذلك في كثير من بقاع الأرض الأخرى) يتم على الدور، ففي كل عام يتقدم من يريد الحج إلى وزارة الأوقاف الأردنية، ليتم التنافس الشريف بين المتقدمين، ويفوز بالجائزة من ينتمي إلى واحد من فريقين:

- **الفريق الأقدم في العمر**
- **الفريق الأقدر على سلوك الطرق الملتوية.**

أما بالنسبة للفريق الأول وهو الأقدم في العمر، فذاك أمر واضح من شهادة الولادة، ولا أعتقد أن الذي لم يتجاوز بداية العقد السادس من العمر يمكن أن يقع عليه الاختيار، فعادة ما يكون ذلك معلناً للجميع، فتخرج الوزارة بالقرار

التالي: وقع الاختيار على من ولد قبل عام 1943 لهذا العام، وهكذا.
ولكن هناك طريقة أخرى غالباً ما يسلكها أهل النفوذ في البلاد، وهي الفوز بـ فيزة الحج بطرق أخرى، كالواسطة أو المنحة أو الهبة، وهكذا، فيذهب هؤلاء النفر للحج (لأداء ركن من أركان الدين) وهم مطمئنون أنهم لم يأكلوا حق غيرهم، ويعودوا وقد اغتسلوا من ذنوبهم كما ينقى الثوب الأبيض من الدنس، والحمد لله!
ولكن، ألم يسأل هؤلاء النفر أنفسهم السؤال التالي: كيف لي أن أقوم بتأدية ركن من أركان هذا الدين بطريقة ملتوية؟ هل يجوز لي ذلك؟ هل يجوز أن اغتصب حق غيري لأتعجل بأداء هذه الفريضة؟ ألم تكن تلك الفيزا التي حصلت عليها من حق شخص آخر ممن بلغ من العمر ما بلغ وربما تسبقه المنية ولا يشهد العام القادم ليتقدم للمنافسة من جديد على تلك الجائزة؟ ثم، هل لو لم تكن وزيراً أو نائباً في البرلمان أو صاحب نفوذ أو واسطة، هل كنت ستتمكن من الحصول على تلك الفيزا، فهل كانت تلك الفيزا ستصلك لو جلست في بيت أبيك ولم تستغل منصبك وموقعك؟!
ثم ألم يسأل من يسمي نفسه وزير الأوقاف وطاقم وزارته أنفسهم السؤال التالي: لم يذهبون في كل عام لأداء مناسك الحج مع بعثة الحج الأردنية؟ ألم يكن الأولى بهم أن يتركوا تلك المقاعد لمن هرم وهو ينتظر دوره؟ ولم يأخذوا البدلات والمكافآت على رفقتهم لقافلة الحج؟ وعلى حساب من كل ذلك؟ أليست العمرة بمئتين من الدنانير الأردنية؟ لم يصبح الحج بألفين؟! أليس ذلك من جيوب المساكين والفقراء الذين أمضوا العمر يوفرون لهذا الرحلة؟ وما هي إلا أيام لتنتقل تلك الثروة العظيمة (في نظر الفقير) إلى فتات من المال (في جيوب المرتزقة ممن يرافقون بعثت الحج كمسئولين).
- لا لا لا، الأمر ليس كذلك، فهؤلاء الموظفون يقومون بواجب عظيم في تسهيل أمر الحجاج
- آه لقد غفلت عن ذلك، ولكن الجميع مدعوين لسؤال من حظي بشرف صحبة الوزير في السنوات السابقة عن التسهيلات العظيمة التي وفرتها لهم رفقة معاليه وصحبه.
نعود إلى صلب الموضوع بالقول أني لن أختار الطرق الملتوية للقيام بأداء ركن من أركان الدين، ولو عرضت عليّ فيزة الحج في كل عام لما قبلتها وسأنتظر دوري على القائمة، فإن أبقاني الله حياً حتى ذلك التاريخ (أي يوم أن يتم اختياري بناءً على عمري) فسأتقدم بالاستدعاء التالية لسفارة

السعودية معلناً عن رغبتي في أداء فريضة الحج كركن من أركان الدين:

نص الاستدعاء:
بسم الله الرحمن الرحيم
السلام على من اتبع الهدى،
أما بعد،
الموضوع: طلب أداء فريضة الحج
فلما كنت أنا المدعو رشيد سليم الجراح لا اعترف بكم ككيان سياسي مستقل ولا أؤمن بجواز تقديم جواز سفري لكم لكي يختم بإذن الدخول من حكومتكم إلى أرض الحجاز لدواع شرعيّة، فإنني أتقدم بطلبي هذا لتخلوا سبيلي إلى ذلك دون تقديم هذه الوثائق، فان رفضتم فإني أحمّلكم المسؤولية المترتبة على عدم قيامي بأداء هذا الواجب الديني أمام الله يوم الحساب الأكبر، وإن أخليتم سبيلي وما أنا مقدم عليه فتلك ليست منّة منكم بل هو حقي أنتزعه بحق الله وحق رسوله وحق هذا الدين.

تحريراً بتاريخ

الموافق

أما لمن أراد أن يفهم الدافع الشرعي من وراء ذلك، فأقول أن الله قد جعل البيت الحرام قياماً للناس، وليس لأحد حق فيه يمارسه علينا كمسلمين، فالمسلم لا يطلب من مسلم إذن في حق له، فلِمَ نطلب نحن منكم الأذن بالحج بينما لا تطلبوه أنتم منّا؟ هل لأنّ بعير أجدادكم قد ناخ واستراح في تلك الأرض يجعل لكم الفضل به علينا؟ ولكن ألم يستهم بعير أجدادنا فمضى في طريقه إلى الجهاد والفتح؟ هل من الدين أن يُمنَع من خرج أجداده في طريق الفتح أداء فريضة الحج إلا بإذن من ناخ بعير أجداده وتقاعص عن الجهاد؟!

الجهاد
يطربنا أهل الفضائيات صباح مساء بخطبهم عن الأمة الإسلامية كأمة واحدة ذات رسالة خالدة كما أطربنا بها القوميون في شعاراتهم على مدار قرن من الزمن.

ولكن المفارقة أن الإسلاميين يستندون إلى مرجعية عقائدية في تصوراتهم، فهم يعتقدوا أن في هذا الظن سلوكاّ دينياً يتلخص بما جاء في قول الله تعالى:

إِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ (92)

لذا، فعندما يطرق موضوع الجهاد، ينبري أصحاب العمامات البيضاء والسوداء جميعاً للاستشهاد بالحديث النبوي التالي الذي فحواه:

إذا احتل شبر من أرض المسلمين، بات الجهاد فرض عين على كل مسلم ومسلمة

فيلبي كثير من المسلمين النداء ظانين أن هذا واجب ديني تفرضه الشريعة، فقد خرجوا للجهاد متسلحين بهذا الحديث حتى لو كان ذلك في بلاد الشيشان أو أفغانستان أو فلسطين أو البوسنة أو الهرسك، وهكذا.

أما أنا فأظن أن موقفي يتلخص بما يلي: لا بد من تعطيل هذا الحديث في الوقت الراهن حتى يتم تصويب الأمر، وإن استمر الحال على ما هو عليه فلا أظن أني ملزم أن أجاهد في أي معركة من هذه المعارك.

- ولكن لماذا؟

- الجواب: غالباً ما تسلح العلماء بالدين للدفاع عن مواقفهم، وهم لا شك ممن يدعون إلى تحكيم شرع الله والاحتكام إليه في كل صغيرة وكبيرة، وهاديهم في هذا قول الحق:

فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا

النساء (65)

والعلماء لا يختلفوا في أن شرع الله هو الفيصل في كل شيء، وعندما يتبين لهم أن هذا الطريق أو ذاك هو سبيل الحق فلا شك أنهم متبعوه لا محالة، وهم على استعداد على الدوام أن يميلوا إلى الحق حيثما ما كان، وأن يتراجعوا عن مواقفهم إن ثبت لهم أنها غير سبيل الحق، فهم يقرؤون في كتاب الله قوله تعالى:

وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا

الأحزاب (36)

فقضاء الله لا محالة هو الحق، وما دونه فهو الباطل، ونحن كمسلمين لا نقبل بأقل من الحق سبيلا، أليس كذلك؟

إن من اتخذ سبيل الإسلام منهاج حياة، لا بد أن يمتثله في كل صغيرة وكبيرة، فلا يحق لي كمسلم أن آخذ من الإسلام ما أريد وأترك ما لا أريد، فهذا طريق النفاق ولا شيء غير النفاق، فنحن كمسلمين نؤمن بالكتاب على كليّته، ولا نتخذ – كما فعل اليهود والنصارى من قبلنا- منهاجاً منحرفاً يتلخص في أن نؤمن ببعض الكتاب ونكفر ببعضه، مصداقاً لقوله تعالى::

ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسَارَىٰ تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ ۚ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ

البقرة (85)

إذاً فالخزي هو العقاب في الدنيا، والعذاب الشديد هو المرد في يوم القيامة لمن كان هذا هو سلوكه، إذاً فنحن مطالبون كمسلمين أن نتمسك بهذا الكتاب على كليّته، وأن نذهب معه حيثما يأخذنا دون تردد ولا وجل.

وما دام الأمر على هذا النحو فنحن نلتزم بما في هذا الكتاب حتى ولو كلّفنا ذاك الالتزام الكثير الكثير كما قد يبدو لنا من الوهلة الأولى.

إن خلاصة المراد تتمثل في الاعتقاد بأننا كمسلمين نستفيد من الدين بقدر ما يتيح لنا الدين الاستفادة ومكلفين بالواجبات بقدر ما يطلب منك هذا الدين من الواجبات، ولتبسيط الأمر نقول: هل يقبل علمائنا الأجلاء أن نقيم الصلاة ونترك الزكاة؟ أم هل يتقبل علمائنا الإجلاء أن نأخذ من غنائم الحرب ولكن دون أن نجاهد؟ وهكذا. الجواب كلا بكل تأكيد، فمن يريد الغنيمة من الحرب لابد أن يكون قد استل سيفه ومضى في طريق الجهاد، ولكن لا تستطيع أن تطلب مني حصتك في الغنائم ما دام أنك تقاعست ولم تخرج في طريق الجهاد، أليس هذا منطق مقبول عند علمائنا الإجلاء؟

إذاً، فالإسلام الذي يطلب منك الجهاد لا يحرمك حقك في الغنيمة، والمسلم الذي لا يخرج للجهاد لا يحق له أن يطالب بحصته في الغنائم، فكما يطلب منك الإسلام القيام بالواجبات فهو في الوقت ذاته لا يحرمك الحقوق، فالإسلام يعترف للمسلمين بحقوقهم وواجباتهم، □□□□ □□ □□□ □□□□ □□ □□□□□□□ □□□□□□□ □□□□□□ □□□□□ □□□ □□ □□□□□□ □□□□□□ □□ □□□□□ □□ □□□□□□ □□□□□□ □□□□□□□□□□.

ولنعد الآن بعد هذه المقدمة الطللية إلى موضوع الحديث عن الجهاد في الحديث الذي ذكرناه سابقاً وهو:

إذا احتل شبر من أرض الإسلام بات الجهاد.....

والآن لنتخيل أن أعز أرض الإسلام (مكة المكرمة)- لا قدّر الله- قد أُحتلت، ألا يصبح الجهاد فرض عين على كل مسلم ومسلمة في بقاع الأرض حسب رأي المنظرين للحديث السابق الذكر؟

الجواب- حسب رأي علماء المسلمين قاطبة وحسب رأي عامة المسلمين (باستثنائي أنا بالطبع)- نعم، هو كذلك، يصبح من الواجب على كل مسلم الدفاع عن حرم الإسلام والمسلمين الأول مكة.

أما أنا فلا، فوالله الذي لا إله سواه- ليس عليّ جهاد، ولست مكلفاً شرعاً ن أدافع عن مكة.

وقد يستغرب البعض مثل هذا القول ويتساءلون عن السبب في هذا الموقف الشاذ (كشذوذ صاحبه)، وربما يقتبس البعض هذا القول معزولاً عن النص الكلي –كما فعلوا أكثر من مرة- ليتم التشهير ببدع رشيد الجراح، ولكن مهما يظن ويفعل الآخرون، فإن هذا الرأي يمثل الدين الذي أؤمن به، ولا يهمني ولو ضلّ الناس جميعاً.

أما السبب الذي دفعني إلى اتخاذ هذا الموقف العقائدي فهو ما ذكرنا في مقدمة هذا الكلام سابقاً، وملخّصه أن هذا الدين يقر بالحقوق والواجبات، فهو ليس حق دون واجب وهو ليس واجب دون حق، ولنوضّح الصورة على النحو التالي:

أليس من واجبي إذا احتلت مكة أن أدافع عنها؟ نعم هذا واجب شرعي.

ولكنّ مكة الآن غير محتلة وهناك خيرات كثيرة وفيرة في مكة، أليس لي من حق في خيرات مكة اليوم حتى إذا ما احتلت غداً خرجت مدافعاً عنها؟ أم أنّ من واجبي كمسلم الدفاع عن مكة يوم أن تحتل، وليس لي من حق في خيراتها قبل أن تحتل؟

هل أنا –كمسلم- مكلّف بواجباتي الدينية في الشدائد ولا حقوق لي في الرخاء؟ هل يناديني علماء المسلمين للخروج في الجهاد للدفاع عن مكة في وجه المحتل ولكنهم يمنعوني عنها الآن ليرفلوا هم في دمقسها وحريرها أيام الرخاء؟ هل أنا – كمسلم- مطلوب في وقت الشدة ومطرود في وقت الرخاء؟ أي إسلام هذا الذي تتحدثون عنه؟! وأي إسلام هذا الذي يدعوني في الشدائد وينساني في الرخاء؟! إذا كان الدين على هذه الشاكلة (أن يطلب

الناس في الشدة ويطردهم في الرخاء) فوالله الذي لا إله سواه ليس هذا هو الدين الذي أؤمن به. إنّ ديني الذي أؤمن به هو الدين الذي لا ينساني في وقت الرخاء فلا أتردد عن نصرته في وقت الشدائد والمحن. وهذا الكلام ينطبق على كل بلاد الإسلام والمسلمين؟

ولنتصور السيناريو نفسه حقيقة واقعة على الأرض، فها هو أولى القبلتين وثالث الحرمين الشريفين (القدس الشريف) واقع تحت قبضة يهود منذ عقود من الزمن، فهل مطلوب مني ــكمسلم- أن أنصر الأقصى حتى لو كنت من سكان الصين أو اندونيسيا، ثم إذا ما تحرر الأقصى وحاولت أن أشد الرحال إليه، لا أستطيع ذلك إلا بتأشيرة من عباس وصحبه؟!

إذاً أنا كمسلم مطلوب مني شرعاً أن أهبّ لنجدت أقصى عباس وصحبه، ليقيم هو دولته، ويصدر جواز سفره، وتأشيراته، فلا يستطيع المسلم التمتع بخير الأقصى إلا إذا أذن له من ناخ بعير جده في تلك الديار، أليس هذا هو منطقكم يا ساده؟!

كلا وألف كلا، والله لن أقبل أن يسألني الله عن واجبي في الدفاع عن الأقصى مادام أنكم قد جعلتموها حقيقة على أرض الواقع أن ليس لي حق في الأقصى يواز حق من يسكن أرض الأقصى، كما لا يطلب مني الدفاع عن مكة مادام أني لا أتمتع بخير مكة، وليس مطلوب مني الدفاع عن بلاد الرافدين مادام أن خيرات الرافدين لا تتجاوز حدود التي رسمتها سيكس بيكو، وهكذا.

ولكم يا علماء الفضائيات والمنبرين لفقه الجهاد نقول: إنكم لا تستطيعوا أن تلزموا الناس بواجباتهم مادام أنكم حرمتموهم من حقوقهم، فالدين ليس سيفاً يسلط على رقاب الناس متى شئتم وكيفما رغبتم، فمن يطلب من الناس الواجبات عليه أن يعترف لهم بحقوقهم. فهذا هو منطق الدين، فمن لبس عباءة الدين لا يحق له أن يفصّلها على مقاسه!

فهل يحق ــمثلاً- لكل من يتخذ من الدين منهاجاً في بلاد الخليج أن يطالب كافة المسلمين بحق الجهاد عن الخليج إن تم الاعتداء عليه وهو الذي تمتع بخير الخليج وحده ومنع ذلك عن كل المسلمين؟

وهل يحق ــ مثلاً- لكل من سكن الشام أن يطالب عامة المسلمين بحق الدفاع عن الشام مادام أنه يمنع كل من أراد الاصطياف في الشام إلا بإذن الدخول؟

وهل يحق ــمثلاً- لمن سكن مصر أن يطالب كافة المسلمين الدفاع عن

أرض الكنانة ما دام أنه لا يعترف بالمصرية إلا لمن ولد على أرضها؟!
وهل.....؟
وهل.....؟
إنني أفهم أنك تطلب من المسلمين حق الجهاد عن بلد مسلم إذا كان خير ذلك البلد يعود على كل الإسلام والمسلمين، أما إذا كان خير تلك الديار مقتصراً على من يسكن تلك الديار فهم وحدهم من يقع عليهم شرعاً حق الدفاع والذود عن ديارهم، ولا يظنون أن من واجب غيرهم من أبناء المسلمين نجدتهم في أوقات المحن ماداموا أنهم قد نسوهم في وقت الرخاء، ولا يحق لأهل العمامات أن يمثلوا ذلك ويكأنه واجب شرعي على كل المسلمين في كل مكان، فهذه والله ليست بأكثر من أكذوبة للدعاية الإعلامية.
فيا من تتخذ من الإسلام منهجاً ادفع للمسلمين حقهم قبل أن تطلب منهم الواجب الشرعي المفروض عليهم.
ألا تستحق كل هذه الثروة المتوافرة في بلاد المسلمين من كبار علماء المسلمين فتوى شرعية تتعلق بمن يملك هذه الثروة، ومن هم الذين يحق لهم التمتع بها، فليخرج مثلاً علماء الخليج ويقولوا لنا أن الثروة التي وجدت في بلاد الخليج هي حق لأهل الخليج فقط، ونحن على استعداد لقبول هذه الفتوى بكل صدر رحب، لأننا عندها سنكون في حل من كل التبعات المترتبة على هذه الفتوى.
لكننا لن نقبل من علماء الخليج – لأننا لسنا ساذجين لهذا الحد- أن يصدروا الفتوى بأن هذه الثروة خاصة بأهل الخليج ولكن الجهاد عن كل شبر من أرض المسلمين (حتى لو كانت مكة نفسها) هي واجب على كل مسلم ومسلمة.
ونحن لن ننبري للدفاع عن الأقصى لنقاتل في سبيل تحريره إذا كان الأقصى حق للفلسطينيين وحدهم، فلا يدخله ولا يخرج منه أحد من المسلمين إلا بإذنهم، فإن كان كذلك، فليذهب الفلسطينيون أنفسهم لتحرير أرضهم وأقصاهم، (والمثل الشعبي الأردني يقول- كل واحد يقلّع شوكه بيديه).
أما إذا اعترف لي الفلسطينيون بحقي في الأقصى وأن هذا ليس حكراً لهم، ولن يمنعوني عنه، وأنّ حقي فيه كمسلم لا يزيد ولا ينقص عن حق أي فلسطيني يسكن أرضه، عندها سيقع عليّ واجب شرعي بالدفاع عنه والموت في سبيل الذود عنه وتحريره.
فإذا كان عباس ومنظمته هو الممثل الشرعي والوحيد للشعب الفلسطيني

وهو المفاوض الوحيد الذي له حق التصرف بالأقصى (يتنازل عن نصفه ويقبل بنصفه الآخر تحت سيادة دوليه) فإنني في حل من كل واجب شرعي تجاه الأقصى وكل مقدسات فلسطين، فأرض الإسلام الذي يحثني الحديث الشريف الدفاع عنها ويحمّلني المسؤولية الشرعية في الجهاد فيها وعنها هي أرض لكل الإسلام والمسلمين، وحق المسلمين فيها لا ينقص منه شيئاً إذا كانوا لا يسكنوها، فأنت تدافع عن أرضي وأنا أدافع عن أرضك ليس لأنّ هذه حق لي وتلك حق لك، بل لأنها كلها أرض الإسلام والمسلمين، يتمتعون بخيراتها في الرفاهة ويدافعون عنها جميعاً في أوقات الشدة والأزمات.

انضمام الأردن إلى مجلس التعاون الخليجي

والآن وقد جاء اختبار حقيقي لهذه المعادلة بطلب الأردن الانضمام إلى مجلس التعاون الخليجي، تتعالى الصرخات من هنا وهناك بين من يؤيد ومن يعارض، ويكأن الأمر يجب أن يتماشى حسب هوا هذا أو مراد ذاك، ولكنهم لم يحتكموا جميعاً (ولم ينبري علماء الأمة) إلى شرع الله، ليكون هو الحكم الفيصل في هذا الأمر.

أما أنا فيتمثل موقفي بما يلي: أرجو من الله العلي القدير أن لا ييسر انضمام الأردن إلى ذاك المجلس لأننا عندها سنكون شركاء في الجريمة.

- ولكن كيف؟ ولماذا؟

إن في انضمام الأردن إلى ذاك المجلس يعني أن يترتب على المجلس تبعات مالية للأردن – البلد الفقير بمقدراته الاقتصادية وبفكر حكوماته المعاقة المتعاقبة.

فغالباً ما برزت الصورة لدى الآخرين (وهم محقون بالطبع بسبب سلوكيات قيادات هذا البلد) أن هذا شعب متسول يعيش على فتات الهبات من الغرب (الكافر) والجنوب (المسلم الغني)، وغابت صورة بسيطة (على قلتها) أن يكون في هذا الجزء من العالم الإسلامي كما في كل زاوية من بلاد الإسلام والمسلمين صورة ناصعة لبعض أبناءه الذين لا زال عندهم شيء من العزة بدينهم وعقيدتهم، الذين لا يقبلون بغير دينهم ثروة الأرض بأكملها، فهم لا يستبدلون ثروات الأرض بأكملها بشيء من دينهم، لأنهم ببساطة لا يستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير.

المهم في الموضوع هو التبعات الاقتصادية المترتبة على المجلس الخليجي في حالة انضمام الأردن إليه، فمن هذا المنبر غير المعروف أتوجه إلى

شعوب الخليج بأكملها – سائلاً الله تعالى أن يسمع صوتي هذا كل ذي بصيرة ورأي في بلاد الإسلام- أن لا يرضى أهل الخليج بانضمام الأردن إلى ناديهم، فهم لديهم خبرة سابقة كافية بما حصل للمساعدات التي قدّموها للأردن في السابق، واستقر جلّها في بنوك سويسرا وبورصات وول ستريت، ولا أظن أن المساعدات التي ستقدم لهذا البلد في المستقبل سيكون مآلها أفضل من سابقاتها (ولما كان المؤمن لا يلدغ من جحر مرتين، فأرجو أن لا يصار إلى هذا الغلط مرة أخرى).

وأما بالنسبة للشعب الأردني فأقول: ألم تكن عقيدتكم على الدوام أن ثروة الخليج هي حق لكل بلاد الإسلام والمسلمين، فما لكم اليوم تنكصون على أعقابكم وترغبون أن تشاركوا أهل الخليج تلك الثروة، ولا يهمكم إن منعت عن جيرانكم في سوريا ومصر وفلسطين ولبنان والسودان وغيرهم؟ هل ترضون بفتات من تلك الثروة لتتنازلوا عن عقيدتكم التي حملتموها في صدوركم عقوداً من الزمان؟ أم أن المال يغيّر العقائد ويشتري الذمم؟ هل تبيعون عقيدتكم بمتاع من الدنيا زهيد، أما أنا فوالله لست بحاجة لثروة الخليج بأكملها ولو وضعت على طبق واحد.

ولا يظنن أحد من أهل الخليج أننا نحسدهم على ثروتهم تلك، بل على العكس، فوالله الذي لا إله سواه أنني أسرّ كلما ازددتم غنى، و والله الذي لا إله سواه أنني أفرح عندما تزيد أسعار النفط حتى لو كان ذلك يكلفني المزيد من جيبي، وأحزن عندما تنخفض أسعار النفط حتى لو كان هذا ينقض شيئاً مما تبقى في جيبي، ولكني أعلم أن في زيادة أسعار النفط هذه خير لكثير من أبناء الإسلام والمسلمين، واللهَ أدعو أن يزيدكم ويزيدكم ويزيدكم، فخزائن الله ممتلئة لا ينقصها شيء. وأدعو الله العلي القدير أن يكون هذا الغنى غير مقطوع عن بلادكم ما دامت السموات والأرض، ولكني أخشى ما أخشاه أن يكون في كلامي السابق شيء من الحق، في أن تكون تلك الثروة ليست من حقكم وحدكم، بل هي ثروة لكل بلاد الإسلام والمسلمين، وعندها ستكونون كمن يتمتع بخيرات غيره، وكمن يأكل حق غيره، فتكونون مطالبين بها يوم الحساب الأكبر. والله أعلم، قال تعالى:

فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ آل عمران (61)

(والعلماء هم الظالمون (4

نتابع في مقالتنا هذه مناقشة بعض الفتاوى الصادرة عن من يسميهم الناس بـ "أهل العلم" في بلاد الإسلام، مركزين على الفكرة التي طالما جهدنا في تقديمها في سلسلة مقالاتنا تحت عنوان "والعلماء هم الظالمون" وهي: استغلال الفتوى الدينية لتنفيذ مطامع الحكام، وكيف أصبح رجال الدين ألعوبة (أراقوز باللسان المصري) بيد أسيادهم وولاة أمورهم. ونتعرض هنا لثلاث فتاوى صدرت عن كيانات دينية معروفة ومقدرة عند عامة الناس أو عن رجال دين غالباً ما تغنى الناس بعلمهم، وها هي الشدائد والمحن (أو

الفتن) تتوالى ليميز الله الخبيث من الطيب، ولعلي بحاجة أن أؤكد مرة أخرى على أن هذه الفتن (رغم الجراحات والآلام التي تسببها) تساعد في تصحيح مسار هذه العقيدة، فغالباً ما استقرت في أذهان الناس أفهام خاطئة يصعب تصحيحها إلا إذا وقعت الأمة بأكملها في فتن لا تخرج منها إلا بعد أن تصحح الأمة عقائدها الخاطئة التي لازمتها فترة طويلة من الزمن،
وسنحاول أن نبين في مقالتنا هذه كيف يمكن لثورات الربيع العربي أن تساعد في تصحيح مسار عقيدة انحرفت عن جادة الصواب، وحتى لا يبقى كلامنا هذا في إطاره النظري، فإننا سنقدم الدليل من فتوى استقرت في بطون الكتب الصفراء التي هلكت وأهلكت الأمة فترة طويلة من الزمن بعد أن أصبحت من مسلمات أهل العلم الذين لم يقدّموا لهذه الأمة أكثر من النقل الخاطئ عن أسلافهم، ونخص بالذات هنا الفتوى الشهيرة بعدم شرعية الخروج على الحاكم.
الفتوى: لقد كانت معظم المدارس الفقهية الإسلامية وكبار المنظّرين للفكر الإسلامي يفتون بعدم جواز الخروج على الحاكم
رأينا: هذه الفتوى مكانها الصحيح في مزبلة التاريخ وهي ليست من الدين في شيء
الفتوى التي نظن بصحتها: لزوم الخروج على الحاكم
وسنقدم في مقالتنا هذه أمثلة ثلاثة نحاول من خلالها أن نروّج لموقفنا هذا، والأمثلة الثلاث هي:

1. **السماح للمرأة بقيادة السيارة والمشاركة في الانتخابات ومجلس الشورى في "السعودية"**
2. **فتوى مجمع علماء اليمن بعدم جواز الخروج على علي عبد الله صالح**
3. **فتوى الشيخ محمد سعيد البوطي بجواز "السجود" لبشار الأسد كما تناقلتها وسائل الإعلام**

هل يجوز للمرأة أن تقود السيارة؟
لقد شغل هذا السؤال فكر علماء "السعودية" منذ أن دخلت أول مركبة تلك الديار العامرة، وتسابق العلماء في الاجتهاد لظنهم أن السيارة هي من اختراعات القرن العشرين التي لم يأتي ذكرها في كتاب الله (للتفصيل في هذا الموضوع انظر مقالتنا تحت عنوان مصادر التشريع في الإسلام)، وكانت

نتيجة التنقيب المضنية في بطون أمهات الكتب الصفراء على رفوف مكتباتهم، وإعمال النص الشرعي وتحكيم العقل فيها أن الغالبية الساحقة من علماء ذلك البلد الطيب ذهبوا إلى حرمة أن تقود المرأة السيارة بنفسها.
ولمّا كان هذا من الدين (فهو رأي أجمع عليه كبار العلماء) لم يجد آل سعود بدّاً (وهم طبعاً الحامين لهذا الدين المدافعين عنه في وجه كل قوى الشر على الأرض) من الالتزام بهذه الفتوى العظيمة، فأمروا أن لا تصدر رخص قيادة المركبات للنساء، ورضي الشعب بهذا الحال مطمئنين إلى أنهم يطبقون شرع الله، منتقدين –في الوقت ذاته- لغيرهم من أهل الإسلام الذين يخالفون الشريعة عندما يتيحوا المجال للنساء أن تقود المركبات، لتستبيح حرمة الشوارع والطرقات. وقد كان ظنهم أن هذا حرام على النساء حلال للرجال حتى لو كان ذلك (للتخميس في الشوارع)، فالمرأة لا يحق لها أن تقود المركبة (حتى وإن كانت للضرورة، ففي شريعتهم الضرورات تبيح المحظورات إلا ما يخص المرأة)، أما الرجل فله الحق أن يفعل بالسيارة ما يشاء (حتى وإن كانت لغير الغرض الذي صنعت من أجله، ففي شريعتهم يقع ذلك في باب: "قل من حرّم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق").
المهم بالموضوع الفكرة البسيطة جداً وهي أن النساء لا تقود السيارة في السعودية لسبب شرعي (فما تسمى بـ هيئة كبار العلماء) ترى في ذلك مخالفة للدين، وكان هذا هو أمر الدين سنين عديدة وأعواما مديدة.

في السنة الحادية عشرة بعد الألفين للميلاد، يجتمع العاهل السعودي الملك عبد الله يجتمع ويتشاور مع هيئة "كبار ..."، ويخرج بالبيان التالي:
"سيصار إلى السماح للمرأة بقيادة السيارة في السعودية"
ردة الفعل: الله أكبر الله أكبر الله أكبر، الملك عبد الله ينتصر لحق المرأة ويطبق شريعة الله في الأرض.

هل يجوز للمرأة أن تشارك في الانتخابات ؟
كان موقف السادة العلماء في "السعودية" قبل ربيع الثورات العربية يتلخص في المواقف التالية:
الغالبية الساحقة من العلماء وعلى رأسهم "هيئة كبار ..." قالوا: لا يجوز للمرأة أن تشارك في الانتخابات لا مرشحة ولا ناخبة

بعض العلماء قالوا: يجوز للمرأة أن تنتخب لكن لا يجوز لها أن تترشح
قليل من العلماء المستقلين ظن: يجوز للمرأة أن تترشح وأن تنتخب
أما الحكومة السعودية التي " تحمي دين الله على الأرض" كان لزاماً عليها أن تطبق فتوى "هيئة كبار ..." وتلتزم بها، وأما الشعب فكان راض أشد الرضا عن فتوى علماءه ومنهج وسلوك حكومته التي تطبق شريعة الله على الأرض.

في السنة الحادية عشرة بعد الألفين، يجتمع العاهل السعودي الملك عبد الله يجتمع ويتشاور مع هيئة كبار ...، ويخرج بالبيان التالي: "سيصار إلى مشاركة المرأة في الانتخابات المحلية مرشحة ومنتخبة وستشارك كذلك في مجلس الشورى اعتباراً من الدورة القادمة ضمن الضوابط الشرعية
ردة الفعل: الله أكبر الله أكبر الله أكبر، الملك عبد الله ينتصر لحق المرأة ويطبق شرع الله في الأرض
تساؤلات:

سبحان الله: ألم يحرم على المرأة أن تسوق المركبة بفتوى هيئة كبار...؟
ألم يحرم على المرأة أن تشارك في الانتخابات المحلية بفتوى هيئة كبار ...؟
ألم يحرم على المرأة أن تكون عضواً في مجلس الشورى بفتوى هيئة كبار ...؟
والآن
ألا يحل للمرأة أن تسوق المركبة بفتوى هيئة كبار ...؟
ألا يحل للمرأة أن تشارك في الانتخابات المحلية بفتوى هيئة كبار ...؟
ألا يحل للمرأة أن تكون عضواً في مجلس الشورى بفتوى كبار ...؟

السؤال: هل هذا هو الدين؟ هل الدين في الأمس يختلف عن الدين اليوم؟ من الذي حرّم ومن الذي أحلّ؟ هل فعلاً هذا هو شرع الله: بالأمس حرام واليوم حلال؟

الجواب: لا أظن أن هذا يمكن أن يحصل إلا في بلاد يدين أهلها بدين "هيئة كبار..."، وإياكم أن تحاولوا إقناعي أن هذا هو دين الإسلام الذي ارتضاه الله لعباده في قوله تعالى:
... الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا المائدة (3)

فتوى عدم جواز الخروج على الحاكم لعلماء اليمن
عاد عبد الله على صالح إلى أرض اليمن منتصراً على الجروح التي أحرقته مع صحبه في ثورة اليمن بعد رحلة علاج استمرت أشهرا في السعودية، استطاع مهرة التجميل أن يعيدوا لصالح جزءاً كبيراً من سمرة وجهه اليمني الشاحب بعد أن أعطبته القنابل، نام صالح في فراشه في المستشفى أياماً وليال، وكما يفعل الناس عندما تصيبهم الأمراض ويدخلون المستشفى (وخصوصاً غرفة العناية الحثيثة لمن كانت حالته صعبه) يبدءون بمراجعة أنفسهم، مراجعة تاريخهم الحافل بالذكريات، مستذكرين ما قدّمت أيديهم سوءاً كان أم خيرا، وغالباً ما تكون تلك الوقفة مع النفس صادقة، لأنّ الإنسان ربما يشعر حينها بدنو أو اقتراب أجله، ويخلص إلى نتيجة غالباً ما تكون متشابهة عند كل من يمر في مثل تلك التجربة من أبناء الإسلام والمسلمين، نتيجة مفادها تفاهة هذه الحياة الدنيا، وأنها لا شك زائلة بكل ما فيها، وأنّ الحقيقة تتمثل فقط فيما يأخذ الإنسان معه للدار الآخرة من زاد التقوى، لذا تصبح هذه التجربة أقرب ما تكون إلى رحلة التوبة والعودة إلى الله، فيستغفر الإنسان عن ما اقترفت يداه من ذنب، ويعقد العزم على أن لا يعود لمثله (وهي بالطبع شروط التوبة الصادقة).
هذا – أظن- ما حصل مع الرئيس اليمني بعد تجربته المريرة في المستشفى، ويصدّق زعمي هذا ما فعل الرجل بعد عودته مباشرة، فقد كان أول ما فعل يوم أن عاد إلى أرض الوطن هو أن طلب من علماء الدين في اليمن أن يجتمعوا، ويقدموا له الفتوى الصحيحة الخالصة لله في خروج المتظاهرين إلى الشوارع، فقد كان صالح يودّ أن يعرف إن كان هذا يقع في باب الخروج على الحاكم. وربما لا أجاوز الحق كثيراً عندما أظن أن علي عبد الله صالح كان سيقبل بتلك الفتوى مهما كانت (فهو قد عاد للتو من المستشفى وقد راجع تاريخه الطويل على فراش الشفاء واتخذ قراره بالتوبة إلى الله عن ما اقترف من ذنوب خلال مشوار حياته الحافل:

- فالرجل لن يسرق أموالاً أخرى من اليمن (زيادة عن ما كان قد نهب في السابق)،
- والرجل لن يقتل من اليمنيين أكثر مما قتل سابقاً (سواء كانوا حوثيين أم قاعدة أم من بني الأحمر،
- والرجل لن يسلم مقاليد الحكم لأبنائها وأبناء أخيه أكثر مما سلمهم سابقا،
- والرجل لن يوقّع على اقتطاع أراض أخرى من أرض اليمن لدول مجاورة أكثر مما أعطى سابقاً،
- والرجل لن يستقوي بالأمريكيين ولا بغيرهم على "شياطين" الأرض من اليمنيين أكثر مما فعل سابقاً،
- والرجل لن يبقى في السلطة أكثر من ثلاثين سنة قادمة أخرى (فهو قد أمضى ثلاثين سنة سابقة ويكفيه أن يكمل ثلاثين أخرى وعندها سيسلم السلطة لغيره من أبناء اليمن الأوفياء)،
- والرجل سيحتكم دائماً إلى صناديق الاقتراع لفض الخلاف مع المعارضة في كل صغيرة وكبيرة كما كان يفعل دوماً على مدى الثلاثين سنة الأولى من حكمه الرشيد (فالديمقراطية في اليمن لا تجاريها ديمقراطية سويسرا أو النرويج والدنمرك)،
- والرجل لن ...
- والرجل لن ...
- الخ
المهم في الموضوع: تجتمع رابطة علماء اليمن ليقدموا الفتوى والنصح لرئيسهم التائب عن الذنب، والعائد من أرض الحجاز (ربما كـ يوم ولدته أمه)، والجميل في فعلتهم تلك أنهم لم يحتاجوا إلى أكثر من اجتماع لمرة واحدة، ليخرج الدخان الأبيض من مداخن كهنوتهم ليدل على أنهم قد توصّلوا إلى اتفاق حول شريعة ربهم الذي في السماء فيما يخص ربهم الذي على الأرض، فتنفرج سرائر الناس لسماع الخبر:
الفتوى: عدم جواز الخروج على وليّ الأمر
المطلوب: تكبير: الله أكبر الله أكبر الله أكبر ظهر الحق وبطل الباطل إن الباطل كان زهوقاً
الدماء التي سالت في اليمن، الأنفس التي أزهقت في الثورة، الجهد الذي بذل من أجل التحرر كان كله من أجل الشيطان- حسب فتوى هيئة علماء اليمن، أليس كذلك؟

السؤال: هل هذا هو الدين؟ هل فعلاً هذا هو شرع الله: يقتل الناس في الشوارع، يقصف الناس في بيوتهم، يموت الأطفال وتترمل النساء، يحدث كل ذلك بالغارات الجوية وبمدافع الهاون وبقذائف الدبابات ثم لا يجب على الناس إلا أن يقولوا سمعاً وطاعة؟
لا أظن أن هذا يمكن أن يحصل إلا في بلاد يدين أهلها بدين "رابطة علماء اليمن"، وإياكم أن تحاولوا إقناعي أن هذا هو دين الإسلام الذي ارتضاه الله لعباده في قوله تعالى:
... الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا المائدة (3)

فتوى الشيخ محمد سعيد البوطي بجواز السجود لبشار الأسد
تندلع الثورة في سوريا كما اندلعت في أكثر من مكان في بلاد العرب، تتصدى قوى الأمن والشبيحة لهذه المظاهرات، يخرج النظام على العالم ليحذر من خطر الجماعات المسلحة التي تعيث فساداً في سوريا بسبب دورها المقاوم والممانع في المنطقة، تشتد الأزمة، يجتمع السيد الرئيس ذو العنق الطويل مع مشايخ سوريا في ليلة رمضانية على مائدة الإفطار، يتناول كل منهم كأسا فيه شراب ليكون أول فطوره بعد صيام دام يوماً كاملاً، يقول كل منهم ما يقوله الصائم عند الإفطار:
اللّهمّ لك صمت وعلى رزقك أفطرت
يشرب الحاضرون جميعاً من الكأس الموضوعة على الطاولة، وما هي إلا لحظات حتى يكتشف كل منهم أن الذي شربوه من الكأس كان دم حمزة الخطيب، وأمثاله من أطفال درعا وحمص وبانياس ودير الزور و...
ما نود أن نعرفه من هؤلاء الذين حضروا المأدبة تلف رؤوسهم العمائم البيضاء و وجوهم اللحى الطويلة والقصيرة هو: كيف كان طعم دم حمزة الخطيب؟ هل يقارن بنبيذ الشام الأحمر؟ لا شك أنه أزكى من مشروبات المنتجات السورية المحلية التي كانت تنافس بيبسكو وكوكا كولا!

وماذا عن الطعام؟
لقد وجد أصحاب العمائم شتى أصناف الطعام على الطاولة ولكن الذي كان يميّز تلك الوليمة وجبة جديدة في شكلها وطريقة تقديمها، لذا كان يصعب على المشايخ معرفتها مباشرة، شكلها شكل كبد مطبوخة بيد أمهر الطهاة،

تسارع الجميع للحصول على حصّة منها، وعندما حاول بعضهم معرفتها وسأل عنها قالوا لهم أن تلك الكبد هي كبد حمزة الخطيب وأمثاله من أطفال درعا وحمص وبانياس ودير الزور و...
حاول السيد الرئيس أن يزيل اللثام عن كيفية وصول الكبد إليه فقال: لربّما سمعتم ما قالته واحدة من المطربات (اللواتي طالما اهتممنا بهنّ في بلادنا سوريا حتى غدونا ننافس مصر ونتفوق عليها في الرقص والغناء والتمثيل بما قدمناه من رعاية لهم ودعم في بلدنا الحبيب) لقد قالت في أغنيتها تلك أنها بعثت برسالة إلى عشيقها ورسمت عليه صورة نصف قلبها لتسأله عن تعليقه على الموضوع فقالت:
نص القلب رسمته وبكعب الصفحة كتبتله شو تعليقك ع الموضوع
فجاء رد عشيقها الذي أحبها لدرجة الجنون ليقول لها أن رسم نصف القلب لا يكفي للتعبير عن حب المعشوق، فقام برسم القلب كله ورد عليها بالقول:
أللي بده الثاني يحب بيرسمله قلبه كله
وأنا كرئيس للبلد – ارتفع صوت الرئيس بالقول للحاضرين- وبسبب حبى (لا بل عشقي) لقلب حمزة الخطيب وأمثاله من أطفال سوريا فأنا على استعداد لا أن أرسم نصف القلب كما فعلت هي ولا أن أرسم القلب كاملاً كما فعل هو بل أنا على استعداد (على استعداد، على استعداد...
أن أطلعله قلبه كله
صفق الحاضرون من المشايخ (بالرغم من حرمة التصفيق إلا أن الموقف أكبر من أن يحتملوا السكوت فيه) منبهرين بشدة حب رئيسهم لأكباد أطفال بلده!
ما نود أن نعرفه من هؤلاء الذين حضروا المأدبة تلف رؤوسهم العمائم البيضاء ووجوههم اللحى الطويلة والقصيرة هو: كيف كان طعم كبد حمزة الخطيب؟ هل يقارن بكبد الخراف السورية التي يفوق سعرها أضعاف ما يستورد من استراليا والبرازيل؟
في ذلك الاجتماع المشهود طلب السيد الرئيس من المشايخ الأجلاء إبداء الرأي الديني (أي الفتوى الشرعية فيما يحصل على أرض الشام من مؤامرة خارجية وداخلية لإسقاط نظام خليفة الله وابن خليفة الله في الأرض)، جاء الجواب سريعاً بعد أن كانت البطون قد امتلأت بما توافر على المائدة من ملذات الطعام والشراب:
"هذا خروج على الحاكم محرم شرعاً"

وذهب كبيرهم الذي علّمهم السحر ويسمى محمد سعيد البوطي إلى أكثر من ذلك: وجوب السجود لخليفة الله في الأرض، ولسان حاله يقول ألم يسجد أخوة يوسف ليوسف يوم أن دخلوا عليه ورفع أبويه على العرش؟ ما الفرق إذاً بين بشار الأسد وعزيز مصر؟ أليس بشار هو عزيز الشام؟ ألم يتعامل بشار (وأبوه حافظ من قبله) مع كل أهل الشام على أنهم إخوته؟ ألم تدخل مفردة "الرفيق" بمعناها الجديد في قاموس اللغة بسبب الثورة التصحيحية الخالدة؟ لم إذا لا يبادلونه الود بالود؟ لم لا يخروا له سجداً كما فعل إخوة يوسف مع أخيهم الذي رفعه الله فوقهم؟

السؤال: هل هذا هو الدين؟ هل فعلاً هذا هو شرع الله؟ أن يخر الناس سجداً لربهم الذي في الشام؟ أن يخر الناس سجداً لربهم الذي في الأردن؟ أن يخر الناس سجداً لربهم الذي في السعودية؟ أن يخر الناس سجداً لربهم الذي في قطر؟ أن يخر الناس سجداً لربهم الذي في البحرين؟ الخ. ولكن هناك مشكلة بسيطة: كم رباً سيسجد الناس له في العراق؟

الجواب: لا أظن أن هذا يمكن أن يحصل إلا في بلاد يدين أهلها بدين "محمد سعيد البوطي وأمثاله"، وإياكم أن تحاولوا إقناعي أن هذا هو دين الإسلام الذي ارتضاه الله لعباده في قوله تعالى:
... الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا المائدة (3)
وللحديث بقية